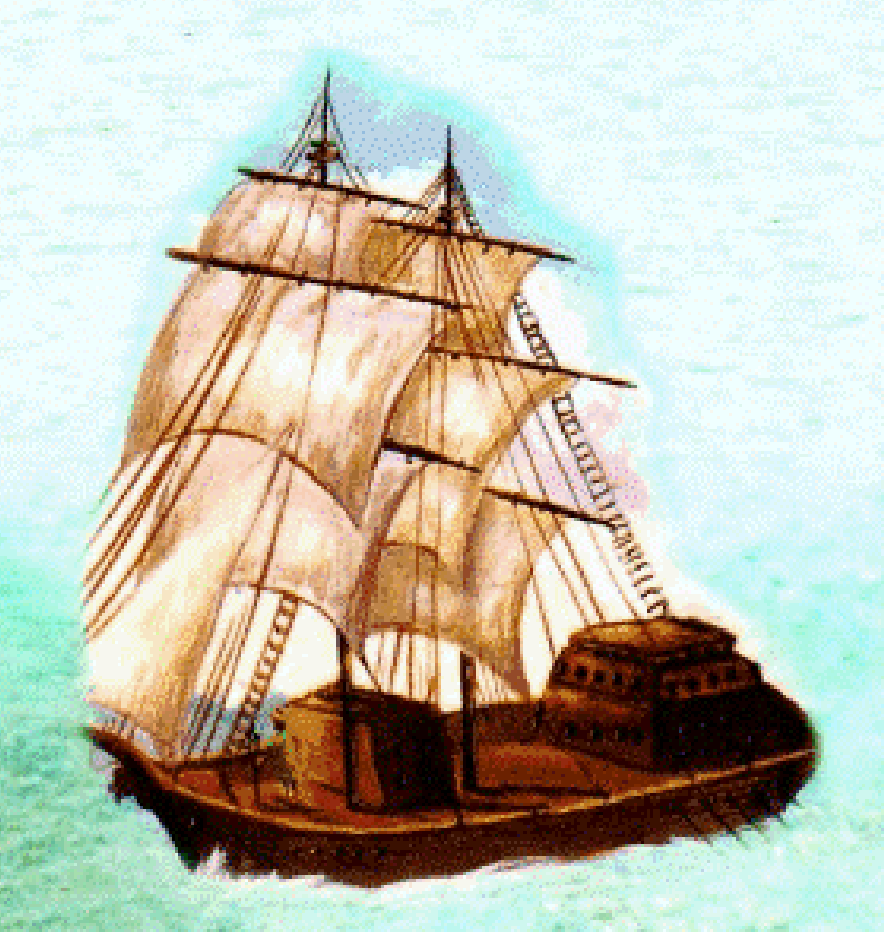
مشاهدات بريطاني عن العراق

سنة 1797



للرحالة الانكليزي المعروف جاكسون

ترجمة : د. خالد فاروق عمر

الدار العربية للموسوعات



مشاهدات بريطاني

عن العراق سنة 1797

الطبعة الأولى

2000 م - 1421 هـ

كافة المراسلات تعنون باسم:

الدار العربية للموسوعات

ص.ب: 511 - الحازمية - هاتف: 05 / 952594 - تلفاكس: 05 / 459981 - 05 / 459982

هاتف نقال: 03 / 3883636 - 03/525066

بيروت - لبنان

مشاهدات بريطاني
عن العراق سنة 1797

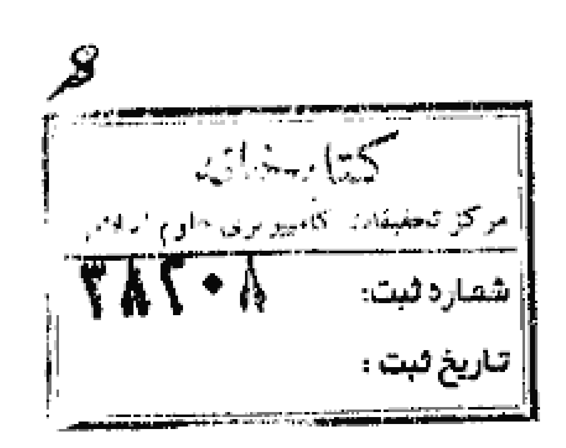


للرحالة الإنكليزي المعروف جاكسون

ترجمة: د. خالد فاروق عمر

الدار العربية للموسوعات


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



تمهيد

أدب الأسفار والرحلات من أمتع فصول الأدب وأكثر مؤلفاته رواجاً وأحسنها قبولاً لدى القراء. فقد يحجم المرء عن مطالعة كتاب علمي أو قراءة مؤلف تاريخي ولكن هذا الأحجام ينقلب لديه إلى إقبال إذا كان ما يقرؤه مشاهدات دونت في رحلة أو أنباء سجلت في سفر.

ولقد اعتاد الغربيون منذ القرون الوسطى الاهتمام بهذا اللون من التأليف فأبدعوا فيه وأكثروا من إبرازه حتى أصبح الكثيرون منهم يبذلون الاهتمام الكبير في تدوين رحلاتهم وأسفارهم وإن لم يكونوا من حملة القلم وأصحاب البيان.

وإذ نذكر اهتمام الغربيين بتأليف كتب الأسفار والرحلات يقتضينا الأنصاف أن لا نغمط حق العرب والمسلمين في هذه الناحية من نواحي الثقافة وميادين المعرفة.

فما أن بدأت الإمبراطورية العربية الإسلامية توطد أركانها حتى شاهدنا العديد من طلاب العلم وعشاق الأدب يجوبون الأقطار الشاسعة ويقصدون الاصقاع النائية التماساً لعلم يتفقهونه على أيدي الجهابذة من العلماء أو طلباً لخزانة كتب يبغون الإفادة مما حوته من نفائس الكتب والتصانيف.

ومع أن الكثيرين من هؤلاء الجوابين لم يدونوا مشاهداتهم في تآليف مستقلة أو يؤرخوا رحلاتهم في كتب محفوظة، مع ذلك فإن من أقدم منهم على مثل هذا العمل قد خلف لنا الشيء المفيد عن البلدان التي رحل إليها والأصقاع التي حل فيها مما يؤلف جزءاً خطيراً بالغ الأهمية من التراث الفكري العربي الإسلامي.

إن نقل ما دبجته أقلام الرحالة والجوابين في الغرب عن البلدان العربية إلى لغة الضاد أمر له أهميته الكبرى. فبالإضافة إلى المتعة التي يلمسها القارىء فيما دونه أولئك الغربيون عن بلادنا يستطيع أن يعرف بالمقارنة مدى التطور الذي أصاب هذه البلاد والأحداث الجسام التي مرت عليها وأن يمحص الغث والسمين من تلك الكتابات والمشاهدات.

هناك نقطة خطيرة لا بد من الالتفات إليها عند قراءة كتب الأسفار والرحلات التي يضعها الأجانب عن بلادنا العربية. هذه النقطة هي الأخطاء الفاضحة التي يقع فيها أولئك الأجانب ليس بالنسبة لأسماء المدن والمواقع التي

يمرون بها حسب وإنما بالنسبة إلى كثير من الأحداث التأريخية والتقاليد والعادات المرعية.

وهذا الخطأ في نظرنا ناجم عن سببين رئيسين أولهما جهل معظم الغربيين باللغة العربية أولاً وباللغات المحلية الدارجة في البلاد العربية والإسلامية ثانياً وهذا الجهل من شأنه أن يجعل أولئك الأجانب يعتمدون في تقرير بعض الحوادث وتقدير بعض الأوضاع التي يشاهدونها إما على الحدس والتخمين أو بالاعتماد على السماع أو ما دونه غيرهم من جوابين سبقوهم عن تلك البلاد.

وثانيهما أن كثيراً من أمثال هؤلاء الرحالة تغلب عليهم العصبية القومية أو الدينية فيروحون يسعون بهذا الدافع إلى الصاق كثير من التهم بسكان البلاد بباعث من كراهيتهم للدين الإسلامي أو حقدهم على الأمة العربية التي استطاعت في فترة قصيرة أن تقوض الامبراطوريات الشامخة في ذلك العهد وتقضي على سلطان الأكاسرة والقياصرة في ضربات خاطفة.

إن هذا الكتيب الذي نقدمه للقارىء الكريم جزء مستل من رحلة قام بها أحد موظفي «شركة الهند الشرقية» ـ وهي الشركة الإنكليزية التي مهدت لبريطانيا احتلال الهند والطريق المؤدي إليها مدة قرنين كاملين ـ من الهند عائداً إلى موطنه بريطانيا عن طريق العراق وتركيا فأوروبا.

ومع أن مشاهدات هذا الرحالة لم تحو الكثير من الأحداث البارزة التي مر بها العراق في تلك الفترة ولم يسهب في وصف الأماكن التي اجتازها ووقع في كثير من الأخطاء، مع ذلك فإن ما دونه عن العراق في أواخر القرن الثامن عشر يؤلف حلقة هامة من حلقات تأريخه التي لم يتقدم أحد من المؤرخين أو الباحثين على تدوينها بروح علمية صادقة.

إن مجرد اطلاع القارىء على ما كان عليه العراق حين اجتازه الرحالة جاكسون وما هو عليه اليوم يكفي وحده لإبراز التقدم الهائل الذي أصابه هذا البلد الذي ما كان يستطيع أن يظل بمعزل عن التيارات العالمية أو يبقى بمنجاة عن فعل الظروف وتطور الأحداث.

مقدمة المؤلف

حين أراد المؤلف القيام بهذه الرحلة لم تراوده أية فكرة بأن ملاحظاته عن رحلته تلك سوف يطلع عليها الجمهور. فلو كان يعتزم ذلك منذ البداية لكتب عما شاهده بإسهاب ولتعمق كثيراً في تحرياته واستطلاعاته.

ولكن الذي دونه في الواقع كان عن الأماكن التي اجتازها يوماً بعد يوم وقد حصر ملاحظاته بصفة رئيسة في الأمور التي كانت تقع تحت أنظاره.

قد يسأل كثير من الأشخاص عن الدافع الذي حمل رجلاً لارتياد مثل ذلك الطريق المجهول على الرغم مما وضعه نصب عينيه من متاعب وأخطار خاصة وأنه لم يكن يستهدف أية فائدة ذاتية من وراء ذلك.

والحقيقة أن حب الاستطلاع كان الباعث الأول على هذه الرحلة. فلقد سافر المؤلف إلى الهند ولما تهيأت لديه

فرصة العودة إلى إنكلترا رغب أن يغير المنظر أي أن لا يعود بطريق (رأس الرجاء الصالح)[1].

وإذ اعتاد الحياة المفعمة بالنشاط، وقضى حياته باعتدال على الدوام، وكان يتمتع بصحة ممتازة، فقد قرر أن ينتهز الفرصة ـ حين وجوده في بومباي ـ لكي يعود بطريق البحر إلى البصرة وإن كان الفصل من الأوقات التي لم يعد السفر فيها ممكناً في هذا البحر ولكنه أسلم أمره للقدر وأحكامه وتمسك بتلك الروح المغامرة التي ذللت له الصعاب والأخطار.

كتب المؤلفون كثيراً عن مختلف الطرق التي ينبغي ارتيادها حين مغادرة الهند إلى الخارج. وكان طبيعياً أن يوصي كل كاتب بارتياد الطريق الذي خبره هو بنفسه. فالبعض منهم يصف طريق السويس والقاهرة. والبعض الآخر يوصي بارتياد الصحراء الكبرى إلى حلب. وآخرون يفضلون طريق الفرات حتى (الحلة) ومنها إلى بغداد ثم اجتياز شمالي

---

(1) رأس الرجاء الصالح ترجمة حرفية لنتوء داخل البحر يقع في جنوبي القارة الإفريقية ويقام عليه أعظم ميناء في العالم ذلك لأن معظم السفن التي تقصد الشرق الأقصى تمر الآن به رغم وجود قناة السويس ـ المترجم.

(2) أطلق المؤلف على شمال العراق كلمة (بلاد آشور) حتى أنه ثبت ذلك في الخارطة التي ألحقها بكتابه إذ أشار إليها باسم (كردستان الآشورية) والظاهر أن المؤلف متأثر في ذلك بالتاريخ القديم للعراق حيث كانت مملكة آشور تقوم في المنطقة الممتدة من تكريت إلى العمادية شمالاً وكل كردستان شرقاً ـ المترجم.

العراق[1] حتى ارمينيا وغيرها وغيرها.

غير أن جميع الرحالة كانوا متفقين على أن هذا الطريق الأخير (طريق الفرات) كان من الطرق التي يستحيل السير فيها في الأشهر الممتدة من نيسان حتى أيلول من السنة.

لكن الصفحات التالية سوف تبرهن على أن هذا الطريق صالح للسير فيه طيلة أيام السنة فلو أراد المسافر أن يجتاز الجزيرة العربية خلال الشتاء حين يكون الجو معتدلاً فسيلاقي البرد القارص حين يمر عبر جبال أرمينيا. ولو أنه عانى شيئاً من الحر في الجزيرة العربية، والتي تعد بحق أحر مكان في العالم، فلربما وجد بقية رحلته مبهجة معتدلة. وحين كان مؤلف هذا الكتاب في الجزيرة العربية خلال منتصف الصيف كانت الفواكه ناضجة متوفرة ولقد بقيت هكذا طيلة الطريق إلى أن بلغ (فيينا)[2].

وقليل من الأوروبيين من يستطيعون أن يعودوا أنفسهم على النمط التركي للحياة أو المتعة. غير أن هذا لم ير طريقاً أفضل للوصول إلى بغداد من الطريق الذي اجتازه هو بنفسه خاصة إذا لم يكن المسافر مثقلاً بالكثير من حقائب السفر فإذا أراد المسافر أن ينعم بالثقة فإن المؤلف ينصحه بأن يغادر

---

(1) فيينا عاصمة النمسا ولم تكن عاصمة حين مر المؤلف بها في طريقه إلى إنكلترا إذ كانت النمسا والمجر (هنغاريا) تؤلفان إمبراطورية واحدة عاصمتها (بست) المعروفة اليوم باسم بودابست عاصمة المجر الحالية ـ المترجم.

البصرة ممتطياً صهوة جواد فيجتاز الصحراء الكبرى في خط مستقيم إلى الحلة مصحوباً بأحد الأعراب أو (بجوخدار)[1] وبخادمين اثنين حسب. وفي مثل هذه الحالة عليه أن يتزود بخيمة خفيفة لينام تحتها، وبلحاف يتغطى به، وبكميات قليلة من القهوة والبسكويت وما شاكلهما. فبمثل هذه الطريقة يستطيع أن يبلغ بغداد بسهولة في مدى ستة أيام.

ويسر المؤلف أن يقدم لأي مسافر يرغب اجتياز هذا الطريق التوصيات التالية:

على المسافر حين وصوله إلى البصرة أن يزود نفسه بالملابس العربية ويظهر بمظهر العربي. فمن الضروري له أن يطلق لحيته لتطول وإن وجد هذا غير مريح له فعليه أن يطلق شاربيه ذلك لأن حليق اللحية والشاربين، وإن يكن آمناً في مدينة كبرى أو أي مكان متمدن، إلا أنه قد يلاقي في مثل هذه الرحلة بعض القبائل الجاهلة التي تجوب القفار والتي قد لا تتردد في الفتك به إذا ما اكتشفوا أنه فرنجي[2] ولهذا فعليه أن يشابه العرب في الملبس قدر الإمكان.

---

(1) جوخدار ضابط في الجيش يقرب في الرتبة من رئيس العرفاء ـ المؤلف.

(2) فرنجي الكلمة التي تطلق على المسيحيين بصفة عامة، والعرب يسمون أوروبا فرنجستان ـ المؤلف. والواضح أن العرب في بداية الفتوحات الإسلامية كان يسمون الأوروبيين بالروم، نسبة إلى روما، وما أن افتتحوا جزءاً من أوروبا حتى غدوا يسمون الأوروبيين ـ وليس المسيحيين كما ذكر المؤلف ـ بالفرنجة نسبة إلى فرنسا ـ المترجم.

ولما كان الملمون باللغة العربية من الأوروبيين قلة وعلى الأخص أولئك الذين يعرفون كيفية التحدث بها في الجزيرة العربية فإن المسافر سيصاب بخسران لا سيما إذا كان محاطاً بالعرب وحدهم ولذلك فإن من النافع جداً له أن يصطحب معه بعض مبادىء العربية لتعينه على توجيه بعض الأسئلة النافعة أو الضرورية. فعندما كان المؤلف يجتاز شط الفرات والحي ودجلة كان يحمل معه قاموساً صغيراً لاستعماله هو وقد ثبت أن ذلك القاموس الذي صنعه بنفسه كان ذا فائدة عظمى.

وإذ يصل المسافر بغداد سوف يجد أن الانكليز محترمين لهم مكانتهم في تلك المدينة ولذلك ينبغي له أن يحسن معاملته مع الناس لأن هذا من شأنه أن يزيد من اعتباره القومي. فهو إن أساء المعاملة فإن الناس لن يشتموه وحده حسب وإنما يشتمون أمته كلها، وهكذا فإن عملا سيئاً يأتيه فرد واحد قد يجلب الخطر على مئات من أبناء قومه الذين يمرون بتلك البقاع.

أما السفر من بغداد فليس له سوى صفة واحدة هي أن يكون المسافر تحت إشراف التتر أو رسل الحكومة وفي حمايتهم. فهؤلاء الرجال يخضعون لأوامر الباشا ووزرائه مباشرة ولكنهم على استعداد دائم للتعاقد مع أي فرد وهم يربحون من وراء ذلك أرباحاً كبيرة وعلى الأخص من

المسافرين الذين يستطيعون الحصول على (فرمان)[1] فبفضل هذه الجوازات يستطيع التتر أن يأخذوا معهم عدداً من الخيول والخدم وكميات من السلع أثناء عودتهم يتقاضون عنها أجوراً طيبة. فقد ذكر في الفرمان الذي ظفر به المؤلف أنه (قنصل إنكليزي) الأمر الذي ساعد دليله التتري في الحصول على حرس حكومي (بدون مقابل) في أية منطقة يكون السير فيها خطراً بسبب القبائل الجوابة.

وتلك أسرع طريقة للسفر ذلك لأنه يندر أن يتعرض شخص يقال عنه أنه قنصل، للأذى.

وعلى المسافر أن يأخذ بعين الحذر والعناية أي اتفاق يعقده مع التتر والذي أنصح به هو أن يدفع للتتري نصف النقود التي يتفقان عليها في بغداد ذلك لأن هذا الترتيب يزيد من اهتمامه بإيصال المسافر سالماً إلى القسطنطينية. كذلك ينبغي للمسافر أن لا يدع للتري يحمل معه سلعة لأحد وذلك أمر يعمد إلى إتيانه ما استطاع إليه سبيلاً.

ولا بد للمسافر أن يلاحظ بأن قليلاً من الشاي والقهوة والسكر سيكون له فائدة في فصل الشتاء وأن بعض

(1) كلمة تركية تعني الجواز أو سمة المرور يصدرها الباشا والذي يقصده به المؤلف هنا الوالي أي الحاكم العام ويقول المؤلف عن هذا الفرمان أنه يمنح التتر والمسافر معاً قدراً كبيراً من السلطة على الناس وخاصة على الأفراد المعينين من قبل الحكومة لمرافقة التتر ـ المترجم.

المشروبات الروحية سواء كانت من نوع البراندي أو الهولاندي ستكون لها فائدتها هي الأخرى ولكن ينبغي له أن لا يصطحب هذه المشروبات معه أثناء الصيف لأن من الخطر أن يتناولها في مثل ذلك الفصل الحار ولم يكن المؤلف نفسه ليتناول إلا القليل جداً من المشروبات بالإضافة إلى الماء واللبن خلال سفره من البصرة إلى اسطنبول.

وعلى المسافر أن يتزود بكل ما يتزود به التتر وأن يبرز شخصيته ولا يخفيها وعليه أن لا يأخذ معه الكثير من النقد فيكتفي بقروش قليلة يدفع منها المنح والهبات وعليه دائماً حين يطالب بتقديم هدية أن يشير إلى التتري لأن هذا يعفيه من المطالبة وعليه أن يأخذ معه صكوكاً مسحوبة على بعض التجار لأن هذا من شأنه أن يسهل حصوله على المال وفي الوقت ذاته ينقذه من خطر السلب على أيدي قطاع الطرق الذين لا يأبهون بتلك الصكوك.

ولقد كثر التساؤل عن أسرع طريق من الهند إلى أوروبا وبالعكس والمؤلف يعتقد أن الطريق الذي استخدمه هو أقصر الطرق. فعندما يصل المسافر إلى بغداد يستطيع أن ينحدر بكرافة في دجلة حالاً حتى يصل الحي ومن هناك يدخل نهر الفرات إلى أن يبلغ البصرة في مدى ثلاثة أيام. فهذا الطريق أسرع من أن يسافر إلى الحلة براً ثم ينحدر في نهر الفرات إلى البصرة.

وأسرع الطرق للسفر من الهند إلى أوروبا هي أن يتجه إلى البصرة ثم يقطع الصحراء الكبرى إلى حلب ومن هناك يذهب إلى اسطنبول ثم يصحب البريد الألماني إلى فيينا فهامبرغ. فهذا الطريق سهل وأقل نفقة من طريق بغداد ولكن الطريق الأخير أسرع وقت الضرورة ما دام العرب مجبرين أن يقطعوا الصحراء على ظهور الجمال.

الدار العربية للموسوعات



الفصل الأول

الإبحار من الهند

في الساعة الثامنة من بعد ظهر اليوم الرابع من أيار سنة 1797 غادرت بومباي على ظهر الباخرة «بيرل» التي يقودها الرئيس[1] «رسبنس» وهي متجهة نحو البصرة. كان معي في السفينة كل من السيد جمس ستيفنز من الموظفين المدنيين، والرئيس جون ريد آمر فوج الأمير الملكي الهندي، والمستر جمس مورلي.

تهيأ لنا جو مفرح وماء هادىء ورياح خفيفة كانت تهب من غربي الشمال الغربي ذاته استمرت حتى اليوم الثاني عشر من الشهر حين بلغنا الدرجة 11,9 شمالاً والدرجة 16/ 62 شرقاً من درجات خط الطول حيث اشتدت الريح بعد ذلك وأخذت السماء تتلبد بالغيوم.

---

(1) الرئيس رتبة عسكرية لضابط يحمل ثلاث كوكبات كما هو الترتيب في الجيش العراقي والمقصود به هنا ربان السفينة المعروف لدى العامة باسم «القبطان» وهو تحريف كلمة «كابتن» الإفرنجية التي تعني الرئيس ـ المترجم.

وفي الخامس عشر من الشهر وإذ كنا في الدرجة 42/ 14 من خط الطول هب النسيم العليل من الشمال ثم لم يلبث أن رافقه تيار قوي متجه نحو الشرق.

وفي الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر اليوم السابع عشر من أيار مرت بنا باخرة صغيرة متجهة شرقاً على بعد ربع ميل منا حتى إذا أشرقت شمس في اليوم التالي اتجهت تلك الباخرة نحو الجنوب الشرقي فغدت على مبعدة خمسة أو ستة أميال منا. ولقد ظننا أنها الباخرة العربية المعروفة باسم «نجمة الصباح» وبهبوب النسيم العليل كانت الباخرة تسير بسرعة سبع أو ثماني عقد في الساعة[1].

وفي اليوم الثامن عشر جابهتنا عاصفة قوية من الغرب وتلبد الجو بالسحب وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل تحولت الباخرة إلى الجنوب.

وفي العشرين منه تحولت العواصف إلى ريح منعشة فراحت باخرتنا تقطع ما بين خمس وست عقد في الساعة حتى إذ دنت الواحدة ظهراً رأينا اليابسة على بعد نحو خمسة فراسخ وشاهدنا عدداً من الزوارق العربية فأخذنا ندور بعد الخامسة مساء حول «رأس الغات»[2].

(1) العقدة مقاس بحري يعادل ميلاً بحرياً أو 27 ـ 6080 قدماً ـ المترجم.

(2) لعل المقصود به «رأس الغيث» في مدخل الخليج العربي ـ المترجم.

وعند شروق شمس اليوم الحادي والعشرين من أيار اقترب منا زورقان عربيان محملان بالأسماك فاشترينا منهما سمكاً بأسعار معتدلة جداً. وفي الساعة الثانية بعد الظهر وكانت الريح جنوبية شرقية جنوبية والباخرة تقطع حوالي أربع عقد، شاهدنا سفينة شراعية تطاردنا وقد شككنا، بعد أن شاهدنا مناوراتها، أنها طراد قرصان.

فلقد كانت تمخر العباب بسرعة ملموسة وفي غضون ساعة أصبحت على مرمى منا بما لا يبعد عن ثلاثين خطوة وأدت لنا التحية وسرعان ما أطلق فتياننا طائفة من الطلقات عليها فغيرت اتجاهها وخفت إلى الشاطىء.

وعند إنبلاج صباح اليوم الرابع والعشرين من أيار بانت حدود جزيرة «قشم»[1] على مسافة سبعة أو ثمانية فراسخ وكانت جزيرة «هرمز»[2] هي الأخرى تمتد إلى الشرق منها. لقد أخذنا الآن نشاهد اثنين وعشرين طراداً تحف بنا وتطاردنا بعضها صغيرة وهي تسير بسرعة فائقة متجهة نحونا وتغدو على بعض خطوات منا. كانت هذه الطرادات محملة بالرجال المدججين بالسلاح ولذلك أسرعنا بالنزول إلى مقاصيرنا

(1) (2) من جزر الخليج العربي وعلى مقربة من البحرين وهذه الجزر مأهولة بالسكان الذين يعيش أكثرهم على صيد الأسماك والغوص على اللالىء وقد كانت فيما مضى محتلة من قبل الإيرانيين (انظر كتاب جولة في الخليج العربي طبع 1961 لعبد الله وليمسن) ـ المترجم.

واستعدينا للطوارىء وإن كانت كثير من السفن الكبرى تحتفظ بمدافع على سطوحها. وبدا لنا أن الطرادات الصغرى التي أقبلت نحونا كانت تخشى أن تبدأ الهجوم ضدنا قبل أن تلحق بها الطرادات الكبرى. كان علينا أن نعاكس رياح الطرادات الكبرى ولذلك اضطرت هذه الطرادات بفعل الريح الغربية إلى أن تغير وجهة سيرها وأن تنحرف مستدبرة الأمر الذي أعاننا على مواصلة سيرنا قدماً. ولكن الطرادات ما لبثت تحف بنا من الساعة الثانية بعد الظهر حين هبت عاصفة شديدة من ناحية الغرب وإذ ذاك اضطرت الكبيرات منها إلى الانحراف بسرعة وترك المطاردة والاختفاء وراء جزيرة قشم.

ازدادت العاصفة عتواً ورحنا نضرب في البحر معاكسين الريح دون أن نحاول الرسو على شاطىء مخافة أن نلتقي بأعدائنا ثانية. وفي الثامن والعشرين شاهدنا سفينة كبيرة في مساري «شهراز» تخفق فوقها الاعلام العربية. واصلنا سيرنا بين الجزر المنتشرة على جانب الخليج حيث كانت الرياح القوية العاتية ما تزال تهب من الشمال الغربي.

وفي الحادي والثلاثين من أيار وإذ عصف الجو واشتد اضطرابه شاهدنا طراداً عربياً كبيراً على مقربة من سفينتنا وسرعان ما اصطدم بالمرساة القائمة في مقدمة السفينة فتحطمت مؤخرتها وإذ ذاك لجأ العرب في الطراد إلى التضرع والابتهال وحرفوا مقود طرادهم وما أشرقت الشمس حتى

شاهدنا ذلك الطراد وقد تحطم إرباً.

في اليوم الأول من حزيران جابهتنا عواصف مخبفة وفي الخامس منه دخلنا مياه «بوشهر»[1] وكانت مدينة بوشهر تقع إلى ناحية الشرق وأسرع الرئيس بالنزول إلى الشاطىء ليحصل على إذن من شيخ المدينة يسمح له بالحصول على ملاح من جزيرة «كرك» وقد كلفه هذا الأذن مائتي روبية. وفي مياه بوشهر شاهدنا سفينة شراعبة انكليزية تدعى «بازين» تعود إلى الرئيس (تورين) والتي استأجرتها حكومة بومباي لنقل بعض السلع من بومباي إلى البصرة وكانت قد أبرحت قبلنا بثلاثة أسابيع وقد أبأنا الرئيس تورين أن اثنين وعشرين طراداً قد طوقته على مقربة من جزيرة قشم وأنه بقي يومين في أيدي المطاردين بعد أن حاصره طرادان وشرع من فيهما يطلقون النار عليه من الجانبين وقد هبطوا بعد ذلك إلى سفينته فسلبوا منه بعض المواد في مقدمتها البارود ثم أطلقوا سراحه بعد أن علموا أنه يعود إلى شركة الهند الشرقية الانكليزية وبسبب وجود أحد الركاب في سفينته وهو أخ «نبوب ماصولاباتنام» من الأمراء المسلمين في الهند.

---

(1) بوشهر هو الميناء الإيراني المشهور الذي يقع على الساحل الإيراني من الخليج العربي وقد كان من الموانىء الشهيرة منذ القدم وبرز اسمه خلال الحرب العالمية الثانية (1939 ـ 1945) إذ كانت المساعدات التي قدمتها أمريكا إلى الاتحاد السوفياتي بعد اعتداء هتلر عليه في صيف 1941 تفرغ في هذا الميناء وتنقل منه بالسيارات وسكك الحديد إلى الاتحاد السوفياتي ـ المترجم.

وذكر العرب للرئيس بأنهم في حالة حرب مع إمام مسقط وأنهم قد ظنوا أن سفينته هي «نجمة الصباح» التي تعود إلى أمام مسقط. وكانت نفس هذه الطرادات قد ألقت القبض قبل سنتين على سفينة فرنسية.

في السادس من حزيران تجاوزنا جزيرة كرك بثلاثة أميال ومن ثم بلغنا نقطة محاطة بسلسلة من الصخور البيضاء. كان الماء ضحلاً هناك ورغم الجهد الذي بذلناه فقد توقفت سفينتنا عن الحركة لأنها قعدت على الصخور وإذ ذاك بعثنا بأحد ملاحينا من الاعراب إلى شيخ المنطقة نطلب مساعدته وأقبل علينا الشيخ سليمان مع مائة رجل في ستة زوارق وأفرغنا بعض حمولة السفينة في الزوارق ولكنها لم تتحرك وانقضى الليل ورجال الشيخ ساهرين معنا وفي الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم الثامن هب النسيم عليلاً وأخذ مد الماء يرتفع أكثر من اليوم السابق وإذ ذاك طافت سفينتنا دون أن تلحق بها أية أضرار حيث اقتربنا من مدينة (كرك) وأرسينا مراسينا في مياهها.

ركبت أنا والرئيس ريد زورقاً أقلنا إلى الشاطىء في

---

(1) كرك المقصود بها جزيرة خارك الإيرانية وتقام الآن فيها محطات واسعة لخزن النفط وتحميله من هناك بالناقلات وينقل هذا النفط بخطوط أنابيب من حقول كرجياران. وسبب اقدام شركات النفط الإيرانية (وهي الاتحاد الاحتكاري النفطي الذي يمثل شركات النسع العالمية الكبرى التي تسيطر على صناعة البترول في العالم الرأسمالي كله) على بناء هذا المشروع يعود إلى تعذر دخول ناقلات البترول من حمولة خمسة وسبعين ألف طن إلى المياه الإيرانية سواء في عبادان أم بندر معشور - المترجم.

محاولة لاقتناص البقر الوحشي الذي يكثر وجوده في الجزيرة بعد أن حصلنا على اذن من الشيخ بذلك.

أخذنا معنا دليلين عربيين وسرعان ما شاهدنا حوالي عشرين بقرة وحشية. كانت هذه الحيوانات ذات لون رمادي خفيف وهي رقيقة الاقدام يبلغ حجم الواحدة منها حجم الماعز ولكن سيقانها أطول ولها قرون صغيرة. اتجهنا نحو أعلى نقطة في الجزيرة ويبدو أنها كانت نتيجة انفجار بركاني لأن الصخور المرجانية والأصداف البحرية تغطي قمتها. وفي الجزيرة مياه صالحة ولكن الزراعة فيها ضئيلة وهي تقع حول الينابيع وعندما كنت على الشاطىء عند انتصاف النهار لاحظت أن حرارة الشمس كانت أقوى مما جربته في الهند وعند عودتنا إلى الشاطىء شاهدنا الشيخ سليمان يوزع بين رجاله أكياس الرز الخمسة عشرة التي استلمها من الرئيس سبنس لقاء أتعابه ويظهر أنه كان راضياً بهذه الكمية التي بدت في نظري ونظر الرئيس ريد تافهة بالنسبة للخدمة التي أداها سليمان في إنقاذ سفينتنا وحمولتها.

كان الشيخ في حوالي الخمسين من عمره وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة وقد طلب منا أن نعطيه بعض الاطلاقات النارية فأعطيناه عدداً منها وأضفنا إليها كل ما كان لدينا من بارود.

يبلغ طول جزيرة «كرك» التي يتراوح عدد سكانها بين

ستمائة وسبعمائة نسمة، حوالي اثنى عشر ميلاً وعرضها سبعة أميال وهي تشتهر بالماعز ولكن فيها بعض الأبقار غير أنه لم تكن فيها حيوانات وحشية مفترسة ويكثر في مياهها البط والسلاحف وقد اصطدنا عدداً منها. وتنتج الجزيرة كميات ضئيلة من الخضراوات. والحرارة فيها شديدة خلال الصيف وهي تدمر كل المزروعات علماً أن الحنطة والشعير والرز تنمو فيها ولكن بكميات لا تفي بحاجة السكان الذين تعتبر الأسماك هي الغذاء الرئيسي المتوفر لديهم.

في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم الثامن من حزيران تقدم ملاح يدعى «زيدون» بمشحوفه ليأخذ على عاتقه قيادة السفينة من مكانها الذي كانت راسية فيه حيث أبحرنا في ريح هادئة تهب من الغرب فشرعنا نجد السير بين جزيرة «كرخا»[1] والشاطىء الإيراني.

كان الملاح زيدون يسبقنا بمشحوفه لكي يشير إلى المناطق التي تكثر فيها الصخور كيما نتجنبها حتى إذا ما حل ظهر اليوم الحادي عشر من حزيران بانت لنا مداخل نهر البصرة[2].

---

(1) أعتقد أن المؤلف يقصد بها جزيرة (خاركو) وهي على بعد ثلاثة أميال شمال جزيرة خارك التي مر ذكرها ـ المترجم.

(2) لعله يقصد بذلك مدخل شط العرب عند الفاو حيث يصب هذا الشط في الخليج العربي أو خليج البصرة بعبارة أصح ـ المترجم.

في الساعة التاسعة من صباح يوم الاثنين الثاني عشر من حزيران ذهبت أنا والرئيس ريد إلى الجانب العربي من النهر وكنا نحمل بنادقنا معنا غير أننا لم نصطد سوى بعض الحمامات البرية كما حصلنا على بعض البيض والخضار من الاعراب واشترينا منهم عجلاً بستة قروش ولم تكن مسيرتنا في البر لتتجاوز نصف الميل وكانت المنطقة مكتظة ببساتين النخيل. وذكور النخيل زرعت في الشمال الغربي من الاناث لأن الريح تهب عادة من تلك النقطة ويمكن تمييز الذكور بسهولة عن الإناث لأنها أعلى منها وأقل أوراقاً في قمتها. والأرض ملأى بالسواقي لتوزيع الماء من النهر أثناء المد إذ أن النخيل لا يمكن أن تحمل التمر بدون هذا نظراً لحاجتها إلى الرطوبة المتزايدة.

وبعد أن اجتزنا البساتين دخلنا بعض القرى على حافة الصحراء حيث لا يشاهد وراءها أي أثر للزرع. كانت الصحراء تمتد أمامنا قاحلة جرداء تغطيها طبقة من الملح تحدث عند وطئها صريراً مشابهاً لصرير الجليد أثناء المسير فوقه.

إن الغريب عن هذه البلاد لا يستطيع أن يكون له أية فكرة عن حرارة الصحراء إلا إذا كان على الشاطىء وفي وسط النهر وفي مثل هذا الوقت من الصيف ذلك أن أقدام المواطن الأوروبي سرعان ما تلتهب حتى وإن كان ينتعل أقوى حذاء لديه.

والملاحظ أن دور القرى هنا مشيدة باللبن ومغطاة بسعف النخيل وعدد السكان فيها كثيف جداً ومعظمهم ضعيفي البصر وقد يكون ذلك بسبب انعكاس نور الشمس على أرض الصحراء. أما ملبسهم فهو بسيط جداً أيضاً فالرجال يرتدون على العموم ثوباً فضفاضاً ذا أردان واسعة قصيرة و«طاقية» في رؤوسهم تحميهم وقدة الشمس وقد لاحظت أن العرب يضعون طاقياتهم الصوفية هذه على رؤوسهم. أما النساء فإن ملبسهن بسيط أيضاً لا يعدو عن ثوب من قماش قطني أزرق اللون.

ويمتلك هؤلاء الناس قطعاناً عديدة من المواشي والنعاج والماعز يسوقونها كل صباح نحو شاطىء النهر حيث تتوفر المراعي هناك ويراقب الرجال والنساء والأطفال معاً هذه المواشي وهم يمتعون أنفسهم عادة بالاستحمام في النهر إذ تتهيأ هنا للعربي فرصة الاستحمام ما بين خمس وست مرات يومياً. وتعاد القطعان إلى القرى عند المغيب عادة لتظل فيها طيلة الليل. وتحاط كل قرية بسور طيني واسع ليدفع عنها غائلة الوحوش الضارية وخاصة الأسود التي يكثر عددها في هذه المناطق.

لم تكن المرأة العربية متحفظة جداً كما كنا نتوقع ذلك فقد سرت النسوة بتنوع ملابسهن ورحن يقدمن لنا اللبن والخبز وغيرهما من الغذاء بكل لباقة. وخبزهن مصنوع أقراصاً ولكنه ليس جيداً أما اللبن فغير مستساغ بالنسبة

للأوروبي لأنه شديد الحموضة. غير إننا وجدنا العرب يفضلونه وهو في حالته تلك. وإذ سحرتنا مناظر الشاطىء فقد مكثنا هناك طويلاً أكثر مما اعتزمنا الأمر الذي دفع بسفينتنا إلى أن تطلق إطلاقة تنبهنا بها إلى ضرورة الإسراع بالعودة إليها.

شاهدنا في الجانب الإيراني خرائب مدينة كبيرة تمتد زهاء اثنى عشر ميلاً على شاطىء النهر وهي تضم عدداً من القبور التي ما تزال ظاهرة بشكل واضح. وقد قيل لنا أن المدينة قد دمرت من قبل الأمير نادر شاه[1] وأن الذئاب تعول في خرائبها دواماً.

لا توجد في المنطقة الممتدة من البحر إلى هذا الجزء من الجانب الإيراني للنهر أية مزروعات سوى الضئيل جداً منها. كما أن عدد السكان فيها قليل أيضاً ويبدو لنا أن هذه المناطق كانت مزروعة زراعة حسنة فيما مضى ذلك لأن آثار القنوات والترع ما تزال ظاهرة فيها. كما أن عدداً من النخيل قد تناثرت هنا وهناك وأهمل شأنها فلم تعد تحمل سوى القليل من التمر.

---

(1) من أعاظم ملوك فارس 1104 ـ 1963 هـ وصاحب الدعوة إلى مؤتمر النجف المشهور الذي أريد به إزالة الخلافات بين السنة والشيعة ولقد قتل الإمبراطور نادر شاه غيلة وقيل إن متطرفي الشيعة هم الذين اغتالوه بسبب دعوته للتوفيق بين المذهبين السني والشيعي.

تحركنا في الساعة الثانية بعد منتصف ليلة الثالث عشر من حزيران وكانت الريح لا تفتأ تهب عذبة من الشمال الغربي غير أن المد كان ضعيفاً حتى إذا قطعنا مسافة خمسة أميال أرسينا ثانية في الخامسة صباحاً.

إننا نرى الآن قطعان عديدة من المواشي والخيول على الجانب العربي من النهر. والمعتاد أن يحتفظ الشيوخ العرب والبارزون بينهم بعدد من الخيول مسرجة على الدوام ومهيأة لأي خطر يحدث. وتطعم الخيول الحشيش الذي ينمو على الشاطىء أو في الجزر العديدة المتناثرة فيه وهو يجلب من هذه الجزر في القفف المصنوعة من الأغصان المطلية بالقير. وبعض هذه القفف كبيرة تتسع لعشرة رجال.

أخذ المد ينحسر بسرعة صباح اليوم التالي ولم يعد لنا من مطمح سوى أن نصل البصرة في وقت قصير ولذلك بعث القبطان (سبنس) بأحد الأعراب وهو يحمل رسالة إلى مقيم الشركة هناك.

كان وضع المزروعات والسكان على الجانب العربي من النهر على ما هو عليه قبلاً أما الجانب الإيراني فهو أحسن منظراً. فالخضراوات هناك كثيرة وقد شاهدنا عند المغيب إحدى القبائل وقد أخذت تطوي خيامها وتسوق قطعانها أمامها ويبدو أنها لا ترغب الاستقرار في مكان

ثابت. وأشعل أفراد القبيلة النيران التي ظلت متقدة طيلة الليل.

أخذ منظر الجانب الإيراني من النهر يتحسن وبانت بعض القرى الصغيرة وبساتين النخيل كما ظهرت أشجار الصفصاف والدرداء.

وكذلك كان منظر الجانب العربي إذ ظهر مزروعاً على مسافة بعيدة من الشاطىء. كانت التربة هنا شديدة الخصب لا تحتاج إلى أي نوع من السماد كما أن العرب في هذه المنطقة لا يستعملون الأسمدة إطلاقاً.

تظهر على سكنة الجانب الإيراني علائم القوة والصرامة أما ملبسهم فهو مشابه للباس العربي تقريباً، فالمرأة لا ترتدي سوى ثوب من قماش أزرق اللون أما الأطفال فهم عراة تماماً. والرجال شرسون وهم يفتكون بكل من يستطيعون التغلب عليه.

كانت السفينة تسير ببطء بسبب ضعف الريح وقد خرجت جماعة منا تتصيد على الجانب العربي من النهر واستطال سيرنا داخل البر حوالي ثلاثة أميال. كانت المنطقة حسنة الارواء والناس كثيرون فيها وأشجار النخيل وغيرها تظلل الأرض. كما شاهدنا بساتين عديدة للخضار والفاكهة بعضها من النوع الأوروبي. كانت الأعناب والرمان والبرتقال

والليمون وغيرها من الفواكه متوفرة بكميات هائلة في تلك البساتين وهي على وشك أن تنضج. كما شاهدنا كثيراً من أنواع التفاح الطيبة المذاق وخاصة النوع المسمى (كودلنغ)[1] وهو أشد حلاوة من مثيله المعروف في إنكلترا وقد اشترينا منه حوالي قنطارين بمبلغ زهيد جداً.

لقد سررت كثيراً بهذه الرحلة ومع أنني كنت قبل مدة في جزيرة سيلان وتجولت في إقليم ترافنكور ومررت بكل ميناء على ساحل الملبار[2] إلا أنني أفضل هذه الأماكن على تلك وذلك بسبب وفرة مختلف أنواع الفواكه والروائح العطرة المنبعثة من البرتقال والليمون والظلال الوارفة التي تصنعها أشجار النخيل.

كذلك كان سكان المنطقة مؤدبين. لم تكن هناك طرق معلومة وكثيراً ما تهنا فيها فكانوا يسارعون إلى مساعدتنا بإرشادنا إلى الطريق الصحيح وقد استفدنا من استخدام العرب في سفينتنا كثيراً في أمثال هذه المناطق.

---

(1) يسمي العامة عندنا هذا النوع من التفاح (كولدنغ) وهو كما يظهر تحريف الكلمة التي أوردها المؤلف والمعروف أن هذا النوع من التفاع لا يزرع في العراق في الوقت الحاضر وإنما يستورد من لبنان والأردن ـ المترجم.

(2) جزيرة سيلان الحاضرة وعاصمتها كولومبو أما (ترافنكور) فهو أحد أقاليم الهند الشرقية في حين أن ساحل المالبار يقع في القسم الجنوبي العربي من الهند ـ المترجم.

الفصل الثاني

إستراحة في البصرة

أقلعنا في الساعة الخامسة من صباح اليوم الثامن عشر من حزيران وبعد أن قطعنا فرسخين[1] اثنين ارسينا ثانية في الساعة التاسعة. وفي الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر اتجهت نحو البصرة براً برفقة دليل عربي وقد أوقفنا خلال الطريق من قبل الجند ولكن دليلي كان يقنعهم على الدوام بأنه قد سمح لي بالمرور دون مضايقة وقد بدا أن كثيراً من السكان كانوا ينظرون إلي بدهشة ومن المؤكد أن البعض منهم لم ير من قبل أحداً من الأوروبيين لأن هذا الجزء من الطريق الذي سلكناه لم يكن بالطريق الذي اعتاده المسافرون ولم يكن هناك أحد يستطيع أن يسافر فيه على ظهر جواد قاطعاً ذلك العدد الكبير من القنوات التي تعترضه.

كان الريف الذي اجتزته ذا منظر مبهج حسن ارواؤه وعظم خضاره. فالغلات الواسعة من الحنطة والشعير والرز

(1) الفرسخ يعادل ثلاثة أميال ـ المترجم.

قد أوشكت على النضوج في حين كانت كميات الفواكه والخضراوات هائلة. وتزود مدينة البصرة بهذه المواد من المناطق المجاورة لها، ويستهلك الترك والعرب كميات كبيرة منها بالنسبة إلى الأغذية الأخرى.

وبعد أن قطعت في سيرى زهاء عشرة أميال بلغت المعمل الإنلكيزي[1] في البصرة في الساعة السادسة والنصف.

وهنا حصلت على جواد ودليل فركبت من جديد واتجهت من البصرة مباشرة نحو (ماريكل)[2] المقر الريفي للستر «صمويل مانستي» المقيم البريطاني هناك. ويقع هذا الموقع على بعد ثلاثة أميال فوق المدينة وهو قائم على ضفاف النهر.

وقد مكثت في ماركيل أسبوعاً رحت خلاله أجرب كل دلائل المجاملة والضيافة.

فقد كان المستر مانستي يشغل منصب المقيم بجدارة عظمى ويحظي عن استحقاق باحترام كل من تهيأت له فرصة

---

(1) يقصد المؤلف بالمعمل الإنلكيزي المكان الذي كانت تصلح السفن فيه وقد ذكر الرحالة (نيبور) الألماني في كتابه عن العراق سنة 1756 أنه يوجد في البصرة معمل إنكليزي وآخر فرنسي ـ المترجم.

(2) هو الاسم المحرف لكلمة «معقل» وهي الناحية الحالية للبصرة والتي سميت باسم نهر المعقل المشهور هناك وتقوم فيها مؤسسات الموانىء ـ المترجم.

التعرف إليه. وكان مسلكه في كل حركة مسلك الجنتلمان الإنكليزي الحقيقي ولذلك قدم إلى الحكومة خدمات جلى جداً خلال الحرب الحاضرة[1] بأن ألقي القبض على البعثات الفرنسية ومنع فرنسا من تحقيق أي اتصال لها بالهند عن طريق البر.

وكنت خلال إقامتي هناك أقوم بزيارة البصرة وهي مدينة واسعة جداً، مكتظة بالسكان ويمتد السوق فيها زهاء الميلين وهو مزود تزويداً حسناً بالسلع. فهو يحوي الأدوية من مختلف الأنواع والتي تجلب إلى هنا بسعر معتدل رغم قيمتها الملموسة في أوروبا كما أن للنقود هنا قيمة أكثر مما لها في البلدان الأخرى.

والمصنوعات الأوروبية نادرة وغالية والناس يفضلون المصنوعات الإنكليزية على ما سواها فأقمشتنا وساعاتنا قد تباع بأكثر من ضعف السعر الذي تباع به في إنكلترا.

يبلغ طول أسوار المدينة من ضفة النهر حتى الصحراء

---

(1) يقصد المؤلف بهذه الحرب التي كانت قائمة آنذاك بين إنكلترا وفرنسا بعد أن غزا نابليون الأول مصر واحتلها واستولى على جزء من فلسطين وذلك في محاولة منه للوصول إلى الهند درة التاج البريطاني في سنة 1799 ولقد باءت محاولة نابليون تلك بالفشل بعد الهزيمة التي أحاقت بأسطوله على يد الأسطول البريطاني في مياه البحر الأبيض المتوسط عند سواحل افريقيا الشمالية ـ المترجم.

الكبرى زهاء أربعة أميال، وطولها من الشمال حتى الجنوب نحو ثلاثة أميال وقد شيدت هذه الأسوار من اللبن بصفة رئيسة وهي بالطبع لا تستطيع المقاومة وعلى الأخص بوجه المدفعية ولقد شاهدت من هذه المدافع عدداً ضئيلاً جداً في الريف ولكنني لاحظت عشرة منها في المدينة ومعظمها مصنوعة من البرنز غير أنه لا يوجد سوى اثنين أو ثلاثة منها صالحة للعمل، وقد تحطمت مركباتها إلى ارب بسبب تعرضها للشمس.

وفي المدينة تقوم عدة مساجد وجوامع ذات منائر وكثير منها جميلة البناء وبعض هذه الجوامع مغلفة بالقاشي المزجج الذي يعطيها مظهراً فريداً وقد أنشئت معظم البنايات العامة كالمساجد والجوامع والحمامات من الطابوق ولكن المعمل الإنكيزي يعد الآن أحسن الأبنية في المدينة.

توجد داخل الأسوار عدة أماكن خالية لم تقم فيها أية أبنية ويظهر أن البعض منها قد تعرض للحريق والمنازل متشابهة بصفة عامة جداً وقد بنيت معظمها باللبن عدا أقسام ضئيلة منها أنشئت بالآجر. وتتألف أخشابها من جذوع النخل وهي ليست مربعة الشكل بل مدورة وفي ذات الحالة التي جلبت فيها من البساتين فهي ناعمة اسفنجية ولا تعمر طويلاً. فالجدران السميكة جداً والأخشاب الرقيقة هي التي تؤلف المادة الأساسية الوحيدة في البناء.

وسقوف المنازل مفرطحة محاطة بجدران واطئة وعلى

هذه السقوف ينام السكان خلال فصل الصيف في الهواء الطلق. ويبدو كل منزل في نظر الأوروبي أشبه بالسجن لأن النور لا ينفذ إليه من الشارع وذلك لانعدام النوافذ فيه. ويؤلف المنزل مربعاً وليس هناك من اتصال بين السكان وجيرانهم وتقوم في داخل هذا المربع عدة غرف بعضها يقع تحت الأرض يلتجأ إليها الناس عندما ينتابهم التعب بسبب حرارة الشمس في النهار.

أما المطبخ والماء والخيول فإنها توضع كلها في الطابق الأرضي أما الصالة التي يستقبلون فيها الضيوف، والحريم والغرف الأخرى فإنها تكون في الطابق الثاني حيث تتألف على العموم من ردهة تسندها أعمدة متواصلة تحيط بداخل البناية كلها تقريباً. والمعتاد أن يكون لهذه البنايات ممران واسعان أحدهما يؤدي إلى الصالة حيث يسمح للأجانب وغيرهم بدخولها، والثاني يؤدي إلى الحريم حيث لا يسمح لأحد بدخوله عدا أفراد العائلة.

ويندر مشاهدة نساء الطبقة العليا خارج أبواب المنازل، وإذا ما خرجن من منازلهن فيكن محجبات على الدوام. وكثير من النساء العربيات وخاصة أفراد الطبقة الدنيا لا يستعملون الحجاب.

والعبيد من الرجال والنساء معاً يباعون ويشترون بصفة علنية في السوق.

لقد سبق لي إن قلت أن المدينة مكتظة بالسكان. وأكثرية السكان من العرب وأما البقية فإنهم من الأتراك والأرمن ومعظم الأتراك هم من الرجال العاملين في الجيش أو في المناصب الحكومية الأخرى. أما الأرمن فإنهم يشتغلون في التجارة وبعضهم محترمون جداً!! ولهم تجارة ملموسة مع «شرقي الأنديز» والبنغال بصفة رئيسة. وتستخدم في هذه التجارة عدة سفن لا تتجاوز حمولة أكبرها عن أربعمائة طن وذلك بسبب الصعوبة في اجتياز الحواجز. والمعتاد أن تحظي السفن المسافرة من البصرة إلى بومباي أو البنغال بحمولات كاملة يتألف الجزء الأكبر منها من طبقات نحاسية وأدوية من مختلف الأنواع أما سفن بومباي فإنها على العموم تحمل الفواكه الجافة. على أنه من النادر أن تبحر أية باخرة إلى أي جزء من بقاع الهند دون أن تحمل معها عدداً ملموساً من الجياد العربية. وهناك أمثلة عديدة على السفن التي تنقل الفضة والسبائك بمبالغ تقرب من آلاف الروبيات[1] وهذه النقود تتألف بصفة رئيسة من دولارات إسبانية وجنيهات فينيسية[2]. والجزء الأعظم من المتاجرة بهذا النوع من المواد

(1) جمع روبية العملة الهندية الأساسية وتعادل زهاء خمسة وسبعين فلساً عراقياً - المترجم.

(2) نسبة إلى مدينة «فينس» الإيطالية والجنيه الفنيسي هذا يبلغ حوالي تسعة شلنات وأربعة بنسات أي حوالي أربعمائة وسبعين فلساً - المترجم.

في الامبراطورية التركية يتركز في أيدي الأرمن الذين ما أن يتوفر لديهم مبلغ منها حتى يسارعون ـ بقصد الحيلولة دون وضع الأتراك أيديهم عليه ـ إلى تصديره إلى الهند حيث يحصلون على فوائد لا تقل في الغالب عن اثنتي عشرة في المائة. والعادة الجارية أن تسترد هذه الفوائد بشكل سلع متنوعة يجهزون بها القسم الأعظم من الامبراطورية العثمانية. وتستورد كميات وفيرة من السكر والرز من الهند. ويبعث الأرمن بسبائك النقود من هنا إلى مراسيلهم في معظم أنحاء الامبراطورية كما ترسل مبالغ ملموسة مماثلة من الاستانة أيضاً. وتعرض هذه عادة برعاية (التتر)[1] ومراسيلي الحكومة الذين يتلقون مكافآت طيبة لقاء أتعابهم. وقد يتعرض التتر أحياناً للسلب والقتل من لدن القبائل المتجولة التي تعيش في القسم الأعظم من الممتلكات التركية في آسيا وقد حدث مثل هذا الحادث قبل شهر مضى حين كان أحد التتر عائداً من الاستانة إلى بغداد وهو يحمل معه ستمائة جنيه فينيسي فتعرض لهجوم وسلبت نقوده وفتك به في الطريق ما بين ديار بكر والموصل.

---

(1) المعتاد، ولكنه خطأ فاحش، أن نكتب كلمة التتر هكذا «ترتر» انظر «رحلة كامبل برأ إلى الهند» ومؤلفات أخرى غيرها وتلفظ «تتر» ـ المؤلف.

ويظهر لنا من سياق البحث في هذه الرحلة أن المؤلف يقصد بكلمة «التتر» الأتراك الساكنين في الأناضول والمتاخمين إلى روسيا والذين يشتهرون بالشجاعة ولا يختلفون عن «القوزاق» الفرسان الروس المشهورين كثيراً ـ المترجم.

أما بالنسبة إلى العرب وهم يؤلفون أكثرية السكان فلا يوجد سوى عدد قليل من الأثرياء بينهم في حين أن القسم الأعظم منهم فقراء جداً وهم يتعاطون أعمالاً شاقة لقاء أجور ضئيلة. ومع ذلك فإنهم يستطيعون بهذه الأجور الضئيلة مساعدة عوائلهم ذلك لأن ملابسهم لا تكلفهم غالياً ولأن طعامهم يتألف من التمر والخبز والماء مما يكتفون به تماماً. والواقع أنه وإن كان طعامهم بسيطاً إلا أن قوتهم البدنية على وجه العموم تعادل ضعف قوة الأوروبيين وهم قادرون على تحمل المشقة أكثر من أولئك.

تبدو شوارع المدينة ضيقة جداً وهي لا تسمح إلا بمرور حصان واحد في وقت واحد. يضاف إلى هذا أن أجزاء كثيرة من هذه الطرقات غير معبدة مما يصعب حتى على الخيول المرور فيها.

توجد في المدينة كنيسة كاثوليكية رومانية جيدة البناء والناس في هذه المنطقة أقل تحرشاً بالأجانب من غيرهم.

وكل شخص هنا يرتدي الملابس البلدية وهم يعنون بتربية شواربهم بصفة خاصة. ولقد التقيت هنا بأحد الأرمن المشهورين المدعو «جوزيف أمين» الذي أمضى عدة سنوات في إنكلترا ونشر فيما بعد، باللغة الإنكليزية، كتباً عن رحلاته ومغامراته كتبها هو بنفسه. وقد عرض أن يذهب مع ولده إلى البنغال ومن ثم يأخذه إلى إنكلترا. وقد عرضت عليه أن

يبعث بولده معي إلى إنكلترا كيما يكون مترجماً حسناً لنا لأنه يفهم اللغات الأرمنية والعربية والتركية والإنكليزية. وكان الفتى، وهو في حوالي السابعة عشرة من عمره، جد مشوق لأن يصحبني في سفرتي ولكن أباه بعد أن تردد بعض الوقت صمم أن ينفذ مشروعه الأصلي وهو أن يصطحب ابنه معه.

الأحد 25 حزيران

كان كل شيء قد أعد حسب توجيهات المستر مانستي لكي نغادر البصرة إلى بغداد. وقد هيىء أحد الأعراب، ويدعى عبد اللطيف وهو رجل محترم جداً، لمرافقتنا في الطريق لقاء أجر دفعناه إليه مقداره ألف وثلثمائة قرش(1).

والذي تجب ملاحظته هو أن هذا المبلغ كان عن تأجير ثلاثة قوارب وعدد من الحرس. أما أنفسنا فقد تزودنا بالمهمات من جميع الأصناف كالأواني الخزفية وعدد الطعام والخدم حيث انفقنا لقاء ذلك كله خمسمائة قرش إضافية.

كانت الألبسة التي أعدت لكل شخص منا تتألف من:

1 ـ عباءة عربية مصنوعة من الصوف أو عباءة للركوب.

2 ـ صديري داخلي.

(1) المقصود به القرش التركي في ذلك العهد ويساوي حوالي عشرين فلساً عراقياً ـ المترجم.

2 ـ زوج من السراويل.

2 ـ قميص.

1 ـ «زبون».

1 ـ عمامة.

1 ـ طاقية من الصوف.

1 ـ زوج نعال أصفر اللون.

سحبت زوارقنا إلى ماركيل وفي الساعة الخامسة استأذنا من المستر مانستي وأقلعنا. كان اثنان من الزوارق يقلان الركاب أما الثالث فكان يقل حراسنا الإضافيين وما أن أقلعنا مباشرة حتى ارتدينا الملابس فأصبحنا نشبه العرب تمام الشبه في مظهرنا وقد أطلقنا شوارابنا طويلة لأننا لم نحلقها مذ غادرنا الهند.

لقد بذل الاهتمام التام في سلامة أشخاصنا فقد كان مرافقنا عبد اللطيف على الدوام في واحد من الزوارق التي اصطحبناها معنا في حين كان أخوه «حمود صلاي» يستقل زورقاً آخر.

ولما كانت هذه الزوارق قد أعدت بشكل يدعو إلى الإعجاب لتحقيق القصد من استخدامها لذلك لم يكن المبلغ الذي دفع عنها غير مقبول.

يوصف هذا الزورق عادة باسم «دونيك»[1] ويسمى أحياناً باسم «كرافة» وهو يستخدم من قبل الاعراب في نهري دجلة والفرات. ويبلغ أقصى عرض الزورق ما بين سبعة وتسعة أقدام، أما طوله فيبلغ اثنين وأربعين قدماً وهو يصنع من ألواح خشبية قوية عرض الواحدة منها ثماني عشرة بوصة تربط بينها قطع صغيرة من ألواح وتغطى بطبقة من القار يبلغ سمكها زهاء نصف بوصة حيث يسهل إصلاحها في حالة تشققها وتسرب المياه إليها.

ويغطى داخل القارب بذات النوع من الألواح لا يزيد طول اللوح الواحد منها عن ثلاثة أقدام طولاً أما أعراضها فغير متساوية ويكون الرتق بينها عادة كثير الشقوق. وبعض هذه القوارب تغطى بالحصر بدلاً من الألواح وتطلى بطبقة من القار أيضاً. ويكون الزورق حاداً جداً في نهايتيه ويبحر بسرعة أما مجاذيفه فهي من الأخشاب التي تربط بقطعة من اللوح على كلا الجانبين.

وعلى مقربة من الصارى ربطت بعض الحصر لتصد عنا

---

(1) الدونك أو الدانك بالكاف الأعجمية إحدى الكلمات التي تطلق على الزورق في العراق ولا يزال سكان الجنوب والأهوار خاصة يستعملونها حتى يومنا هذا بالإضافة إلى أسماء المشحوف، والكعد، والبلم والحلاية والبركاشة والطرادة. المترجم.

انظر حاشية ص ٣٦ من كتاب (قصبة في مهب الريح) تأليف غافن مكسويل ترجمة عبد الصاحب التميمي).

حرارة الشمس وقد برهنت على فائدتها الكبيرة.

وفي صدر الزورق أنشيء مطبخ باللبن والطابوق لغرض إعداد الطعام فيه وقد وجدنا هذا التدبير ذا فائدة عظيمة لأنه أعاننا على تهيئة كل ما هو ضروري لنا دون أن نضطر إلى تأخير الرحلة بسبب الرسو هنا وهناك.

والمعتاد أن تنحدر مثل هذه الزوارق من الحلة في نهر الفرات حتى البصرة في مدة ثلاثة أيام ونادراً ما تصل المدة إلى أربعة أيام. أما من بغداد إلى البصرة في نهر دجلة فيستحيل عليها أن تقطع المسافة في مدة أقل من ثمانية أيام ولو أن التيار في عدة أماكن من دجلة أشد سرعة من نهر الفرات ولكن طول نهر دجلة يبلغ ضعف طول نهر الفرات بالإضافة إلى هبوب رياح عديدة وانحدار النهر بعيداً نحو الشرق حيث الحدود الإيرانية.

واجهنا نسيم عليل من الجنوب وانفتحت الأشرعة وتحركت المجاذيف وأخذ القارب يقطع زهاء خمسة أميال في الساعة الواحدة ونحن متجهين إلى الشمال حتى بلغت الساعة الثانية عشرة.

وفي فجر يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر حزيران خفت الريح وواصلنا التجذيف حتى مطلع النهار بمعدل ثلاثة أميال في الساعة الواحدة حيث توقفنا برهة على

الجانب الإيراني من النهر وذلك بقصد الاستراحة والاستمتاع. أما على الجانب العربي شمال ماركيل فلا توجد زراعة ولا سكان ولا مخضرات عدا نقاط ضيقة على ضفاف النهر حيث شاهدنا عدداً كبيراً من الإبل ترعى هناك وبذلك، تهيأت لنا متعة واسعة.

وللشاطىء الإيراني من النهر مظهر أفضل لأنه يتكشف عن حقول النخيل الكثيفة وعن وجود عدد من القرى ويبلغ عرض النهر هنا نحو ميلين وهو يتجه نحو الشمال الغربي والجنوب الشرقي.

وإذ هبط المد ولم تتهيأ لنا سوى ريح ضئيلة فقد اضطررنا إلى سحب الزوارق بالحبال، وفي الساعة الحادية عشرة اجتزنا مصب نهر كبير على الجانب الإيراني يسمى «شط العجم» ويقصد العرب به «نهر الفرس» ولم نجد له اسماً آخر بينهم.

في الساعة الواحدة وصلنا «القرنة» ملتقى نهر دجلة والفرات وقد مكثنا هنا ساعتين ولاحظنا أن دجلة كان يقع في الناحية الشمالية الشرقية وأن الفرات كان في الجهة الغربية منا. كانت إحدى السفن الحربية تمخر على مقربة من الوسط بين النهرين وهي سفينة حراسة تقوم بمطاردة السفن الأخرى التي تتهرب من دفع الرسوم المترتبة عليها ومنعها من المرور. فالنهران باتحادهما هنا معاً يؤلفان مجرى مائياً هائلاً عذباً.

ويطلق السكان على هذا المجرى من هذا المكان حتى الخليج العربي اسم «شط العرب» ولم يعد للمد أدنى تأثير على المياه في القرنة إلا في الأيام التي يكون فيها القمر بدراً أو محاقاً وحتى في تلك الأيام لا ترتفع المياه إلا قليلاً أما التيار فلن يتحول.

ويعتقد بعض المطلعين أن القرنة كانت موقع «جنات عدن»[1] ذلك لأن مظهرها المنبسط الحالي لا يوحى بإلصاق اسم «الفردوس الأرضي» الذي جاء في وصف «ملتون»[2] فهي قرية صغيرة محاطة بسور طيني تضم سكنة قلائل لا يزيد عددهم كثيراً والواقع أنه يوجد بستان نخيل غير واسع يقع بين القرية والنهر يؤلف ظلاً مستحباً هناك. ويبدو أن العرب هنا

---

(1) الشاعر الإنكليزي الأعمى المشهور (1608 ـ 1674) الذي اشتهر بوضع كتابه «الفردوس المفقود» والذي يعد قريناً للفيلسوف العربي العظيم أبي العلاء المعري في تفكيره وأسلوبه ـ المترجم.

(2) يكتب كثير من المؤرخين والرحالة الأوروبيين الذين يتناولون وضع العراق عن «جنات عدن» هذه، ويؤكدون أن موقعها كان في مدينة (القرنة) ولسنا نعرف كيف نرامي إلبهم ذلك والظاهر أن جميع هؤلاء المؤرخين قد اعتمدوا على مؤرخي الإغريق في هذا الموضوع ومنهم المؤرخ الشهير هيردوتس والمؤرخ اليوناني أريانوس.

ولقد وردت في القرآن الكريم كلمة (جنات عدن) في عدة مواضع والمقصود في كتاب الله هي الجنان التي وعد الله المؤمنين بها في الآخرة.

وليس من المستبعد أن تكون (القرنة) وهي المنطقة التي يلتقي بها دجلة بالفرات فيما مضى من العصور القديمة من المناطق التي تشتهر بكثرة البساتين ووفرة الأزاهير وعذوبة الماء ونقاوة الهواء بحيث لم يتورع السواح عن وصفها بذلك الوصف الرائع وهو (جنات عدن) ـ المترجم.

يقضون معظم أوقاتهم بلا عمل ويعتمدون في جل حياتهم على ما ينالونه من المسافرين الذين يمرون بهم أكثر من اعتمادهم على ما لديهم من أعمال.

كان ضباط الكمارك يتوقعون أن يحصلوا على هدية من دليلنا ولكنه ما دام لا يحمل أية بضاعة معه فلم يدفع إليهم شيئاً ما.

غادرنا القرنة في الساعة الثالثة وسرنا في نهر الفرات الذي يسميه العرب شط الفرات وقد اجتزنا الضفاف الغربية من النهر ولكن جابهتنا ريح خفيفة من الشرق فاضطررنا إلى سحب الزوارق والتجذيف حيث لم يزد معدل سيرنا عن ثلاثة أميال في الساعة الواحدة. والريف في هذه المناطق غير مأهول بالسكان إلا قليلاً وتغطيه المستنقعات وأعواد القصب والصفصاف. أطلقت النار على طير الكركي بين الصفصاف ولم يلبث أن اندفع من المنطقة قطيع كبير من الخنازير كان حجم البعض منها غير اعتيادي. والواقع أنني لم أكن لأصدق عند الوهلة الأولى بأن هذه الحيوانات من الخنازير فقد كانت ألوانها حمراء غامقة. وعلى مقربة من البصرة كان عدد من الخنازير البرية قد قتل وكانت جثة الواحد منها تزن عشرة قناطير إنكليزية[1].

---

(1) المقصود بالقنطار هنا هو الهندرويت الذي يعادل12 رط أو كيلو غرام - المترجم.

ولما كان العرب لا يأكلون لحم الخنزير فإن هذه الجثث تظل ملقاة في العراء ويقال أن هذه الخنازير تظل تنمو ما دامت حية. والحقيقة أن ضخامة أجسام البعض منها يؤيد مثل هذا الافتراض.

شاهدنا عند الغروب عدداً من بنات آوى يتلصصن على ضفة النهر وإذ ذاك أطلقت النار على واحد منها فقتلته في الحال وواصلنا الجر والتجذيف حتى الساعة الثامنة مساء عندما أسرعنا بقواربنا إلى الضفة الغربية من النهر على مقربة من ضريح كبير حيث مكثنا هناك طيلة الليل ولكننا لم ننعم بالراحة إلا قليلاً بسبب مضايقة البق لنا وعواء بنات آوى والذئاب وغيرها من الحيوانات الضارية في المناطق المجاورة لنا الأمر الذي جعل موقعنا محفوفاً بالخطر.

ما إن انبلج صباح يوم الثلاثاء 27 حزيران حتى استأنفنا رحلتنا ساحبين زوارقنا على الضفة اليمنى من النهر. الريف هنا ذو منظر بهيج وذلك لوفرة بساتين النخيل وحقول القمح فيه وفي الساعة الثانية مررنا بخيم بعض العرب وقد أحاطت بها أعداد كبيرة من الماشية، من أبقار ونعاج ومعز. وفي الثالثة دخلنا قناة في الجهة اليمنى من النهر تنساب فوق صحراء جرداء زهاء ثلثمائة ميل وكانت تفزع سكان البصرة وتلك المناطق كثيراً جداً. كانت حرارة الشمس على أشدها وكانت أعداد هائلة من السمك والحيوانات التي هلكت بعد

أن جفت المياه تنشر روائحها الكريهة في الهواء وتسبب الخطر لكثير من الناس ولذلك كان العرب يسمون تلك القناة «مياه الموت».

يستخدم هنا عدد من الرجال لسد تلك القناة ولكن جهودهم كانت تذهب سدى ولا يستطيعون إنجاز العمل المطلوب منهم. لقد كانوا على الدوام يحملون معهم صرائف مصنوعة من القصب وسرعان ما يقذف التيار معه هذه الحزم القصبية عند إلقائها في اليم. على أنني مقتنع بأن دزينة من الانكليز يملكون وسائل ومواد صحيحة يستطيعون أن ينجزوا في ساعات قلائل ما لا يستطيع خمسون من هؤلاء الأعراب إنجازه في أقل من أسبوع واحد.

وإذ مالت الشمس نحو المغيب ملنا بزوارقنا إلى الضفة اليمنى من النهر لنمضي هناك الليل كله ولنعاني كالليلة السابقة من البق وضجيج أصوات الحيوانات الضارية في العراء.

الأربعاء 28 حزيران

ما إن طلع النهار حتى واصلنا سفرنا بجر الزوارق كما كان الأمر سابقاً وقد اجتزنا عدداً من القنوات في ضفة النهر كانت مياهها تغطي الأرياف المجاورة وتحول دون إقدام السكان على زراعتها بالقمح وما شاكله.

ومررنا بعدد كبير من خيام الأعراب تحيط بها المواشي الوفيرة وكان استمرارنا في السير بمحاذاة ضفة واحدة من ضفاف النهر محض اختيار منا ليس إلا، ولأننا لم نلمح شيئاً يثير الاهتمام على الضفة المقابلة من النهر.

وعند حلول المساء بلغنا مدينة كبيرة جداً على الضفة اليمنى من النهر تدعى «سوق الشيوخ» وهنا اشتريت أنا والمستر ستينفنس والرئيس ريد ناموسيات وجدناها ذات فائدة ملموسة لأنها أعانتنا على الظفر بالقليل من النوم كنا في أمس الحاجة إليه. ومع أننا كنا نستلقي دائماً على الأرض الجرداء إلا أننا استطعنا الآن أن ننام براحة بعد أن تخلصنا من تلك الحشرات المؤذية التي لم أستطع من شدة قرصاتها حتى أن أفتح عيني!.

الخميس 29 حزيران

مكثنا في سوق الشيوخ طيلة النهار. وقد تشاجر بعض ملاحينا هنا مع حمود صلاي الذي ضرب أحدهم على رأسه بالمجذاف ولم يستطع ذلك الملاح أن ينقذ رأسه من ضربة مميتة إلا بمشقة. ولذلك اضطر دليلنا أن يصرف الزورق وملاحيه ويستأجر آخر بدلاً عنه وكان طبيعياً أن تنقل مهماتنا إلى الزورق الجديد وأن يبني فيه مكان للمطبخ وهيأ لنا دليلنا وجبة غداء على الطريقة العربية وكان هذا الغداء يتألف من

عشرين سمكة مقلية بالسمن واثني عشر دجاجة مسلوقة وأقراص من خبز الشعير وكميات وفيرة من اللبن. وقد جلسنا على الأرض حسب عادة أهل الريف في حديقة تقع على ضفة النهر وتحت ظلال أشجار التمر والعنب. كان السمك والدجاج والخبز لذيذاً جداً وممتازاً ولكن اللبن كان رائباً غير مستساغ بالنسبة للأوروبي ولم نستخدم السكاكين والشوكات كما هو الأمر في أوروبا وإنما كنا نتناول الطعام بأصابعنا مثلما يفعل العرب ذلك، إذ نمزق الدجاج ونقطعه قطعاً صغيرة ونلتهمها. ويبدو أن دليلنا قد فرح كثيراً لأننا استطعنا أن نطبق عاداتهم في المأكل.

لقد أعجبت الإعجاب كله وأنا أراقب حذق المرأة العربية وخفتها في صنع الخبز. هناك فرن مبني باللبن يتراوح ارتفاعه ما بين قدمين وثلاثة أقادم أنه التنور وفي قعره شق يسحب الرماد خلاله والمعتاد أن يكون عرض فوهة التنور خمسة عشرة بوصة ثم يبدأ بالاتساع تدريجياً عند القعر. ويسخن التنور بالحطب وعندما تكون حرارته كافية وينقطع عنه الدخان تماماً ولا يبقى في القعر سوى الجمر النظيف المتقد الذي يواصل شع حرارة شديدة، تشرع المرأة في اقتطاع العجين المحفوظ في علبة كبيرة وصنع أقراص منه بأحجام مناسبة توضع على قطعة من حجر قائمة إلى جانب التنور وبعد أن يتم اقتطاع العجين وتكويره تحمل إحدى

الكرات منه تمطط وتدور على يد واحدة وترقق بحذق متناه وإذ ذاك يبلل جانب منها بالماء ثم تبلل اليد في ذات الوقت ويلصق رغيف العجين على جوانب التنور حتى ينضج. وإذا لم تنتبه المرأة جيداً فإن حرارة التنور قد تحرق راحتيها وذراعيها.

والذي لاحظته أن طريقة صنع الخبز هذه لا تتطلب من الوقود نصف ما يتطلبه صنع الخبز في أوروبا.

وسوق الشيوخ مدينة واسعة ومأهولة جداً بالسكان وهي مقر «الشيخ ثويني»[1] وهو من أمراء العرب الأقوياء الذين تخضع لحكمه الضفة اليمنى من نهر الفرات من الحلة حتى البصرة. ولقد ثار في إحدى المرات علانية ضد الحكومة العثمانية واستولى على مدينة البصرة ذاتها.

ولكنه ما أن دحر من قبل باشا بغداد[2] حتى هرب إلى إيران غير أنه لم يلبث إن عاد بعد مدة ملتمساً صدور العفو عنه. ولما كان العرب قد التفوا حوله وأكرموا وفادته، وبرهن على أنه خصم عنيد للحكومة، فقد ظن باشا بغداد أن من الصواب إعلان العفو عنه وإشراكه في حكومته.

لم يكن الشيخ ثويني موجوداً حينذاك لأنه أرسل، وهو

---

(1) الشيخ ثويني أحد شيوخ عشائر السعدون الشهيرة في المنتفق (الناصرية) وقد كان من بين المؤيدين لسليمان باشا والي العراق في ذلك العهد وولاء سليمان باشا هذا مشيخة المنتفق في حينه ـ المترجم.

(2) يقصد به قائد الجيش التركي المرابط في بغداد أو الوالي ـ المترجم.

آمر قدير، من قبل باشا بغداد ليوقف تقدم «الوهابيين»[1] الذين امتدت فتوحاتهم حتى الضفة الغربية من الخليج العربي وراحوا يبشرون بدينهم الجديد ويفرضونه بقوة السيف. كان جيش الشيخ يبلغ زهاء ثلاثين ألف مقاتل منهم عشرة آلاف جندي تركي وعشرون ألف مجند عربي.

تجولت مع دليلنا في المدينة وذهبت إلى السوق الذي يمتد طوله نحو ميل وهذا السوق يفتتح عند شروق الشمس ويظل مفتوحاً حتى الساعة التاسعة صباحاً ثم يغلق ليفتح ثانية في الساعة الثالثة بعد الظهر ويستمر حتى المغيب.

وأخذني الدليل أيضاً إلى إحدى المقاهي حيث تناولت القهوة على عادة سكان المنطقة. كما أجبرت على تدخين التبغ حيث قدموا لي غليوناً طوله نحو يارد ونصف اليارد وقد جلست على حصير طاوياً ساقي بشكل متقاطع مثل بقية الجماعة وكانوا يقدمون القهوة في أقداح زجاجية من صنع الصين لا يزيد حجم الواحد منها عن حجم نصف قشرة بيضة ولم أعط حليباً ولا سكراً وبدونها كان اللبن غير مستساغ إلى أن اعتدت عليه.

---

(1) هم سكان نجد الذين يؤمنون بالمذهب الوهابي نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب وكانوا يسمون بالإخوان وقد أغاروا مرات عديدة على جنوب العراق حتى بعد أن تأسس الحكم الأهلي فيه في أعقاب الحرب العالمية الأولى حيث كانت آخر غاراتهم قد وقعت سنة 1923 ـ المترجم.

الجمعة 30 حزيران

في هذا الصباح قام الشيخ الذي يتكلم عند غياب الشيخ ثويني بزيارة لنا وجلب معه ابنته التي كانت في حوالي الثانية عشرة من عمرها وكان كل شخص مجبراً على أن يقف عند حضوره ما عدانا نحن ودليلنا. وقد تهيأت لي هنا فرصة الاطلاع على الاحترام الذي يوليه العرب لرؤسائهم. كان أحد الأعراب يحمل رسالة إلى الشيخ قدمها إليه بأن وضعها على ركبتيه ثم عاد فتسلمها بذات الوضع وبعد أن قرأ السكرتير تلك الرسالة وضع ختم الشيخ على ظهرها.

ويضع الشيوخ والاناس المبرزون في أياديهم اليسرى حلقة من الفضة أو الذهب الخالصين فيها فص من حجر حفر عليه اسم الشيخ. وهم يغطسون هذه الحلقة في الحبر ثم يوقعون بها الرسائل وهذا يعوض عن توقيعاتهم. وبعض هذه الأحجار حمراء اللون وبعضها الآخر من العقيق الأبيض.

لقد ضايقنا هنا عدد من الناس بمخالفاتهم المتباينة لأنه صور لهم أن باستطاعة الأوروبي أن يعالج كل الشكاوى ويختار ما يوصف لهم.

لقد انهمك دليلنا الآن في اصطحاب زورق آخر معه إلى بغداد ويضم هذا الزورق عدداً من بالات الأقمشة المستوردة من «البنغال» كما يضم امرأة أمريكية معها ولدها البالغ من العمر ستة عشر سنة وابنتاها إحداهما في الرابعة

عشر والثانية في الثالثة عشر من العمر.

غادرنا سوق الشيوخ في الساعة الحادية عشرة وتركنا أحد الزوارق وراءنا فعبرنا النهر وشرعنا نسير بمحاذاة الضفة اليسرى حتى الساعة الثالثة حيث أعدنا عبور النهر وأسرعنا بزوارقنا نحو قرية تدعى «غمكريك»[1] نصبنا خيامنا عندها.

تهيأت لي فرصة كبيرة للمتعة في المنطقة المجاورة لنا فحملت بندقيتي وأخذت معي أحد الركاب يحمل البارود والاطلاقات. شاهدت بعض الطيور الجميلة الخضراء اللون ورغبت في تفحصها وقد أسقطت واحداً منها وإذ ذاك أسرع الأعرابي نحوه فقطع رأسه وهو يقول «زين. زين» يريد بذلك أن الطير صالح للأكل. وأسقطت بعد ذلك عدداً آخر من الطيور مختلفة وكان العربي يعمد إلى قطع رؤوسها بعد إصابتها ولم أشأ أن أحول بينه وبين ما يريد.

تلتقي عدة فروع من النهر في هذا المكان وقد وجدنا هناك أحد رجال الكمارك وهو من سكنة اسطنبول وكان قد اشترى هذه الجباية بقيمة غير ضئيلة. كان ذلك المأمور سكيراً ويود أن يصنع كل شيء في سبيل الخمر. وقد أعطيناه

---

(1) أعتقد أن هذه القرية نقطة «كمارك» وأن المؤلف عندما سمع كلمة «كمرك» ظن أنها اسم تلك القرية فسماها بذلك ويؤيد سياق البحث لدى المؤلف نفسه هذا المعنى الذي ذهبت إليه ـ المترجم.

بضع قنينات من شراب «شيراز» فاعتبرها من خمور «ماديرا» و«كلاريت» المعتقة النافعة له جداً وقد سر كثيراً وسرعان ما غدا ثملاً.

السبت 1 تموز

انتظرنا هنا حتى الساعة التاسعة لكي يلحق بنا الزورق الذي خلفناه وراءنا في سوق الشيوخ وما أن وصل حتى غادرنا.

والنهر فوق هذا المكان بمسافة قصيرة واسع جداً تكاد العين لا تدرك شاطئيه ولكنه يكون ضحلاً في عدة نقاط ويظهر القصب فوق سطح الماء وقد غيرنا الآن اتجاهنا نحو الشرق ودخلنا نهراً يسميه العرب «شط الدجيلة» يتصل بنهر آخر اسمه «شط الحي» وهو فرع من نهر دجلة.

ولا أستطيع أن أغادر الفرات دون أن أشيد بعذوبة مياهه التي كانت ألذ ماء في حياتي. ومع أنه موحل عندما يؤخذ لأول مرة إلا أنه سرعان ما يصبح صافياً تماماً وعندما كنت أتناول هذا الماء لم أكن أجد رغبة في تناول الخمر أو أية مشروبات روحية أخرى. واصلنا السير في قنال الدجيلة حتى الساعة السادسة حين أسرعنا بزوارقنا نحو الشاطىء ونصبنا خيامنا على مقربة من مخيم بعض الأعراب.

أنبأنا دليلنا بأن الوضع خطر جداً وأوصانا بأن نحفظ

سلاحنا في خيامنا عند حدوث هجوم علينا. أخذ كل واحد منا بندقية وكمية من الإطلاقات وحربة. أما دليلنا وأخوه وبقية الحرس فقد تدججوا بالسلاح طيلة الليل. وقد وضعوا خفراء على مسافة من الخيام ولقنوهم كلمة السر التي تنطق أثناء الليل ومع ذلك فلم نمس بشيء.

ما كنت قد جربت قبل أن أضطجع على الأرض العراء لاستراح قليلاً وأن أضع سلاحي بجانبي. فعلى من يريد السفر في أمثال هذه البلاد أن لا يقدر قيمة كبيرة لنفسه، مثلما يفعل ذلك الأوروبيون، إلا بعد النجاة من الموت حتى وإن تعرض لبعض الإصابات. فهذه البلاد في حالة حرب مستديمة وكثير من السكان لا يخضعون للنظام وهم يعيشون على الفطرة ولا يتأثرون بالعواطف النبيلة. فهم يقتلون ويسلبون من دون وازع كل من يستطيعون التغلب عليه وهم في حرب مع العالم كله ما عدا عشيرتهم. ذلك هو الوضع الراهن في هذا البلد الذي يعد من أكثر البلدان خصباً في الكون كله. فالمسافر لا يكون دائماً في أمان. وهناك سبب يجعله يتوقع في كل لحظة هجوماً من قوة متفوقة عليه ولكنني عندما غامرت بهذه الرحلة كنت قد تهيأت لها تماماً وأعددت نفسي لجميع الصعاب والمخاطر التي ستجابهني. ولقد كان دليلنا يتصرف تصرفاً حسناً نال رضانا ويعمل كل ما في وسعه لتهيئة الراحة لنا.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثالث

في شط الدجيلة

في صباح اليوم الثاني من تموز قوصنا خيامنا واستأنفنا السفر حيث بلغنا مصب شط الدجيلة في الساعة الثامنة فدخلنا نهراً واسعاً موزعاً إلى قسمين أحدهما يتجه نحو الغرب والثاني نحو الجنوب الشرقي وقد سرنا في هذا النهر الأخير باتجاه الشمال.

لست أعرف ما إذا كانت هذه الفروع تروي الأرض التي تمر بها أم لا ولكنني أظن أنها ترويها. ويبلغ عرض الفرع الكبير زهاء ربع الميل والأرض على جانب النهر مرتفعة زهاء ثلاثة أو أربعة أقدام. والظاهر أن هذه الفروع أوسع مما كانت عليه قبلاً وأنها ما تزال تتسع بفعل المياه التي تأخذها من نهر دجلة وبسبب سرعة تيار هذا النهر وخاصة في موسم الربيع عندما تنساب المياه فيه نتيجة ذوبان الثلوج التي تكلل قمم الجبال.

بلغنا في الساعة الثانية عشرة نهراً يسمى شط الحي

يجري من الشمال الغربي. وقد وجدناه مقسماً إلى ثلاثة فروع اثنان منها تجريان نحو الغرب أما الفرع الثالث الذي سرنا فيه فيجري نحو الشرق.

ولقد لاحظت أن دليلنا كان يختار المناطق المكشوفة دائماً لنمضي الليل فيها مخافة أن نهاجم من قبل بعض الأعراب. وقد «أزعجتنا بنات آوى التي كانت تحيط بنا بكثرة وتقلق راحتنا بعوائها المتواصل». واصلنا سفرنا في شط الحي الذي يجري من الشمال إلى الشرق ومن ثم اتجه نحو الشمال حيث سارعنا بقواربنا إلى الشاطىء. وقد زارنا بعض الأعراب الذين كانوا يمتطون الخيول. كان عددهم حوالي عشرين شخصاً تسلحوا بالرماح والهراوات وما أن اقترب الرجال منا حتى هب دليلنا وهو يحمل بندقيته المزدوجة لاستقبال رئيس الجماعة الذي كان يتقدم أصحابه. كما تقدم رئيس جماعة أخرى من جهة ثانية والتقى الرئيسان وبعد حديث بينهما سارت الجماعتان معاً. ولقد لاحظت أن ذلك الرئيس كان يمتطي مهراً عربياً جميلاً كما لاحظت كذلك أن الشيوخ والمبرزين يركبون المهار عادة وهي أغلى ثمناً من بقية الخيول.

ليس من غير النافع للغرباء الذين يجهلون لغة هذه البلاد وعاداتها وطرائق حياتها أن يتذكروا بأنهم إذا ما شاهدوا رجلاً يمتطي صهوة مهر أن يعتبروه من الطبقة العليا. ذلك لأن الملبس لا يمكن الاعتماد عليه في هذا الشأن.

فالغالب أن نجد الشيخ يكسي خادمه أفضل مما يكسي به نفسه، وأن يأكل معه في صحن واحد، كما لو كانا متساويين تماماً في الحقوق والمنزلة.

كان القنص هو المتعة الوحيدة التي كنت أتمتع بها. وكانت النزهة متوفرة كثيراً هنا حيث كنت أغتنم كل فرصة فيها. والمعتاد أن أصطحب معي في تجوالاتي واحداً أو اثنين من الأعراب لكن هنا لم أستطع أن أقنع أحداً بمصاحبتي وخاصة لم يكن دليلنا راغباً في ذلك بسبب وجود غابة واسعة قد أتعرض فيها للأذى على أيدي بعض الأعراب، أو أن أهاجم من قبل الأسود التي قال عنها أنها كثيرة العدد في المنطقة المجاورة[1]. لقد كان دليلنا يتوقع هجوماً ليلياً علينا، ولذلك ظل هو وأخوه وكل جماعته تحت السلاح طيلة الليل وكان يطوف حول خيامنا وهو يحمل في يده بندقية مزدوجة[2] وكانت الاستعدادات التي أعدتها الخيالة للدفاع عنها والحيلولة دون استلاب ما كنا نحمله، ذات منظر خلاب.

---

(1) المعروف أن الأسد لا يعيش في العراق وأن التحريات الحديثة قد أكدت هذه الحقيقة وقد يكون ما سمعه المؤلف من دليله عن وجود الأسود في ذلك الجزء من العراق نتيجة أقوال متواترة وليست شواهد فعلية ـ المترجم.

(2) نوع من البنادق تتألف من ماسورتين متلاصقتين تطلقان إطلاقتين دفعة واحدة ويسمى عامة العراق هذه البندقية باسم (المطبقة) ـ المترجم.

وفي صباح الثلاثاء الرابع من شهر تموز قوضنا خيامنا وغادرنا المكان في الساعة الرابعة والربع. وفي الساعة السادسة بلغنا الموقع الذي يلتقي عنده النهران إذ كان أحدهما ينساب من الشمال الغربي والثاني يجري من الشرق متجهاً نحو الشمال. وقد سرنا في الفرع الثاني وبقينا نجدف حتى الساعة الثانية عشرة حيث استظلينا بظلال الصفصاف، واسترحنا هناك إلى الساعة الثالثة بعد الظهر. ذلك لأن حرارة الشمس كانت عند انتصاف النهار لا تطاق ولأن ملاحينا لم يستطيعوا تحملها فقد كانوا على العموم شبه عراة لا تستر رؤوسهم سوى طاقية صوفية صغيرة جاءت ملائمة لاستدارة الرأس. وكان مجرى النهر ينحرف من الشمال إلى الغرب حيث كنا نرى ضفاف تلك الفروع الكبيرة وهي ترتفع زهاء سبعة أو ثمانية أقدام عن مستوى الماء لم أر ولا حجراً واحداً من المنتوج الطبيعي لهذه البلاد منذ أن غادرت البصرة فكل ما كنت أراه تربة غبراء ناعمة وعميقة جداً وضفاف أنهار ترتفع سبعة أو ثمانية أقدام دون أن تغير من لون التربة. وكان التيار السريع يواصل تدفقه ويوسع من مجاري هذه الأنهار الأمر الذي يساعد العرب على إرواء أجزاء واسعة من بلادهم التي بقيت غير مأهولة بالسكان ما خلا ضفاف الأنهار وحين لم يكن في استطاعتهم إرواء الأرض كانت الحرارة المفرطة تتلف المزروعات وعلى الأخص في مثل هذا الفصل.

في الساعة الخامسة مررنا بقرية على الضفة الغربية من النهر تدعى «واسط» يبلغ عرض النهر هنا حوالي ميل وكان دليلنا حذراً من الاقتراب من هذه القرية بصفة خاصة ولذلك ظللنا نواصل السير إزاء الضفة المعاكسة ونسرع في التجديف جهد الإمكان، وتحدث الدليل فقال «إن في هذه القرية عدداً من اللصوص ممن لا تأخذهم الشفقة على من يوقعه سوء الحظ في أيديهم ذلك لأنهم لا يخضعون للحكومة ولا يخشون سيطرة أحد سوى سيطر زعمائهم الذين لا يختلفون عنهم في عصيان الأوامر والخروج عن الطاعة».

في الساعة السادسة أسرعنا بزوارقنا نحو الضفاف الغربية للنهر إذ لم نستطع العثور على مكان ملائم لنا على الضفة المقابلة وأقمنا خيامنا على مقربة من حافة الماء وراح الدليل يرقب الوضع خوف الإغارة علينا ولم يسمح لي بالقنص مخافة أن يكتشف مكاننا سيما وقد امتدت خلفنا غابة جد كثيفة.

وطوينا خيامنا وشرعنا بالتحرك في الساعة الواحدة من صباح يوم الخامس من تموز ذلك لأن دليلنا ظن أنه ليس من الأمان في شيء أن نمكث في تلك المنطقة بعد أن أخذ القمر يرسل أضواءه عليها.

وتوقفنا في السادسة كيما نستريح ثم واصلنا سيرنا بعد نصف ساعة وكان اعوجاج النهر شديداً وهو يتجه من

الجنوب الغربي نحو الشمال. ومكثنا زهاء ساعتين من الثانية عشرة حتى الثانية في ظلال أشجار الصفصاف وفي الثالثة بلغنا مدينة «الحي» والتي أخذ النهر اسمه منها. تقع الحي على الضفة الشرقية من النهر وسكانها ليسوا أفضل من سكان واسط في موقفهم من السلطة وفي خارج البلد جمع الدليل رجاله فعدهم فكان عددهم ثلاثين رجلاً ثم جهزهم بأسلحة وألبسهم أحسن ما لديهم من لباس.

ولقد ظننت أن دليلنا يرمي من وراء هذا التظاهر أن يمتنع عن دفع أية جزية يطلبها القوم هنا.

ونشر الدليل بساطاً على الأرض وجلس فوقه هو وأخوه وأحد الضباط الكبار أما الحرس فكانوا وقوفاً حولهم وقد تدججوا بالسلاح. وهنا أقبل كبار رجال المدينة لزيارتهم فسارعوا إلى إكرامهم بتقديم القهوة وغلايين التبغ ومع ذلك ظل دليلنا يحتفظ ببندقيته المزدوجة لديه إذ ألقاها على البساط أمامه وكان مستعداً لإطلاق النار في أية لحظة. وكذلك كان رجالهم الآخرون في مثل هذا الاستعداد.

إن مثل هذا الاحتفال لابد وأن يبدو غريباً جداً في نظر أولئك الذين لم يتعرفوا على عوائد هؤلاء الناس وتقاليدهم بيد أن هذا الحذر كان ضرورياً تماماً إلى أن يعطي لهم الأمان ويتناولوا الطعام سوية حتى إذا ما حدث ذلك لم يعد هنالك أي مجال للخوف. إن العربي بعد أن يأكل أو يشرب

مع شخص آخر حتى وإن كان غريباً عنه ومهما كان معتقده الديني، يعرض نفسه للهلاك كي لا يصاب ذلك الغريب بأدنى أذى سواء في شخصه أو ماله، وأن من يجد نفسه معرضاً للخطر عليه أن يلجأ إلى حماية العربي ويعتمد عليه في الدفاع عنه بصدق وإخلاص.

هناك مثل آخر على هذه الصفة الغريبة التي يتميز بها العرب في معاملة الغير كان قد وقع قبل مدة غير طويلة. فقد حدث أن قطع أحد المبشرين الفرنسيين، وهو يحمل بضاعة، الصحراء الكبرى من حلب إلى البصرة متجهاً نحو الهند وكان لهذا الفرنسي مترجم وحرس يتألف من ثمانين رجلاً معظمهم يمتطون الجمال وحين أصبحوا على بعد خمسة أيام من البصرة هاجمهم عند المساء أفراد قبيلة عربية متجولة. كان الفرنسي يحمل بندقية مزدوجة أطلقها على رئيس الجماعة المهاجمة ولكن المهاجمين اندفعوا نحوه بغضب من أول وهلة وقبل أن تتهيأ للفرنسي فرصة معاودة إطلاق النار كان قد سقط يتلوى بضربة حسام، وقتل الأعراب معظم حرسه وجردوهم من ثيابهم. وكان من بين الذين نزعت ثيابهم عنهم المبشر الفرنسي الذي ظن القوم أنه قد مات. وبعد انتهاء المعركة أوقد العرب النار لصنع القهوة وإنعاش أنفسهم كالمعتاد حيث جلسوا في شكل دائرة حول النار يتسامرون ويتفكهون.

ويبدو أن جرح الفرنسي لم يكن مميتاً. (فهو وإن شج جانب من وجهه إلا أن رأسه لم يصب بجراح) وما لبث أن استعاد وعيه فوجد نفسه عارياً عن ملابسه، شديد الضعف لكثرة ما نزف من دمائه فغدا في حالة يأس قاتلة. وإذ تذكر ما سمعه عن حسن أخلاق العرب في مثل هذه الحالات قرر أن يجرب حظه فأما أن ينقذ حياته، أو أن يضع نهاية لوجوده. وأخذ ينظر إلى الأعراب المحيطين بالنار واختار منهم شخصاً خيل إليه أنه هو رئيسهم وذلك لأنه كان أكبر الرجال سناً في تلك الجماعة.

كان المبشر عارياً كما ولدته أمه وجسمه ملطخ بدمائه ومع ذلك فقد زحف إلى الحلقة وألقى بنفسه فيها وانكب يقبل أقدام ذلك الرجل المسن وكان حدسه مصيباً فقد كان ذلك الكهل هو رئيس الجماعة والذي سارع يغطيه بعباءته ولم يكن لديه مترجم يستعين به وبعد أن بحثوا عن المترجم وجدوه في مثل وضع الفرنسي جريحاً مجرداً من ملابسه ولكن جراحه ليست خطيرة.

وأعيدت إلى الفرنسي ملابسه وبضاعته وتعهد رئيس الجماعة بإيصاله سالماً إلى البصرة بعد أن وعده الفرنسي بأن يدفع إليه مائة قرش فينيسي.

وقع الطرفان اتفاقهما ذاك فبلغ المبشر البصرة سالماً واستأجر طراداً شراعياً ليقله وسلعته إلى مسقط وما أن علم

المقيم البريطاني بالأمر حتى بعث بطلب المبشر وأخذ يعني بمعالجته على يد جراح إنكليزي وقد كان المتوقع أن لا يصل ذلك المبشر إلى الهند ما دامت جروحه لم تندمل بعد.

والمعتاد لدى سكان هذه المناطق أن يفرضوا ضرائب ثقيلة على السفن والمسافرين الذين يجتازون مناطقهم أو أن يسلبوهم حين يمتنعون عن دفع ما يطلبونه منهم وإذا ما أبدت أدنى مقاومة من المسافرين يصادرون الزوارق ويقتلون كل شخص فيها وفي هذه الحالة يستفيدون من استخدام تلك الزوارق في أعمالهم المعتادة.

تعد الحي مدينة صغيرة وهي محاطة بسور طيني ولكن سكانها كثيرو العدد بالنسبة لمساحة المكان وقد غادرناها في الساعة الخامسة وواصلنا المسير حتى السابعة والنصف وأسرع رجالنا في التجديف وسحب الزوارق أكثر من المعتاد وذلك لأنهم كانوا يريدون بهذا أن يبتعدوا إلى أقصى حد ممكن عن المدينة والأشرار من سكانها الذين يخيل إليهم أننا نحمل أموالاً فيهاجموننا أثناء الليل ولهذا أسرعنا بزوارقنا نحو الضفة المقابلة من النهر لنتقي شرهم.

أخذت تمر بنا أسراب كثيفة من الجراد وقد لاحظت أن هذا الجراد وفير العدد في هذه البلاد ولقد أمسكت بعدد منها فوجدت البعض كبير الحجم بشكل غير اعتيادي وهو زاهي الألوان ومعظمه أخضر اللون قرمزي فيما تحت

الجناحين وقد حملني منظرها على أن أرسم لها أشكالاً بمثل حجمها الطبيعي.

وفي الساعة الرابعة من صباح الخميس للسادس من تموز قوضنا خيامنا وواصلنا السير بسرعة حتى الساعة الثامنة عندما استرحنا قليلاً ثم استأنفنا السير إلى الساعة العاشرة ومنها إلى الساعة السادسة مساء دون أي تأخير وهنا جمعنا زوارقنا ونصبنا خيامنا على الضفة الشرقية من النهر.

أخذت أحد الأعراب معي وذهبنا نصطاد على بعد ميل من النهر حيث عثرت على أعداد كبيرة من الدراج وهذا الجزء ـ من البلاد يتألف ـ ما عدا حوالي خمسين ياردة على ضفة النهر من أرض صحراوية وإن كانت تبدو عليها علائم تدل على أنها كانت مزروعة في يوم من الأيام ذلك لأن بقايا القنوات ومجاري المياه ما تزال ظاهرة على سطح الأرض وعلى مسافات تبعد الواحدة زهاء مائة ياردة عن ضفة النهر وتتصل الواحدة منها بالأخرى في الداخل. وفي بعض الأماكن كانت تقوم أحواض مستديرة لخزن المياه فيها.

والنهر هنا يجري سريعاً جداً وقد عمق مسراه وترتفع الضفاف زهاء عشرة أقدام عن سطح الماء ومع ذلك فلا يوجد أي فرق في لون التربة وهناك بقع من الأملاح يبلغ عمقها نصف قدم تغطي الأراضي المحيطة بالنهر حتى إذا ما كشطت تلك الطبقة الملحية بانت التربة تحتها سمراء مغبرة مثل ضفة النهر تماماً.

وعلى مسافة بعيدة نحو الشرق شاهدنا سلسلة جبال

طويلة عالية تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي تدعي جبال كردستان.

واستأنفنا السفر في الساعة الرابعة من صباح يوم الجمعة السابع من تموز وفي الساعة الثامنة دخلنا قسماً من نهر دجلة يقال له «شط العمارة»[1] وفي الجهة المقابلة تقريباً. وعلى الضفة الشرقية من نهر دجلة تقوم مدينة صغيرة تدعى «الكوت» كانت ترسو في مياهها بضع سفن كبيرة كان النهر يسير نحو الجنوب الشرقي وقد ظهر أن شط «الحي» لم يكن في الأصل سوى قناة أريد بها ارواء الريف ولكنها اتسعت بمرور الزمن فغدت نهراً واسعاً يحوي مياهاً عذبة أكثر مما يحويه نهر «التيمز»[2].

يبلغ عرض نهر دجلة هنا قرابة ميل وكان آنذاك في أعلى مستوى له بسبب ذوبان الثلوج في الجبال وانحدار مياهها إلى الأنهار وكانت ضفافه ترتفع عن سطح الماء حوالي عشرة أقدام وقد شاهدنا قطعاناً عديدة من الإبل ترعى على ضفافه.

كان النهر شديد التعرج والالتواء إذ هو يتأرجح بين

---

(1) شط العمارة يقصد به الجزء الأعلى من شط الغراف الحالي والذي يتصل بدجلة عند الكوت حيث يقوم السد الكبير هناك.
أما شط الحي الذي ذكره المؤلف قبلاً فهو الجزء الوسط من الغراف في حين يؤلف الجزء الجنوبي منه شط الدجيلة ـ المترجم.

(2) التيمز هو النهر المشهور في إنكلترا والذي تقع عليه العاصمة لندن ـ المترجم.

الشمال والشمال الشرقي والجنوب. ومررنا في الساعة السادسة بمعسكر تركي مقام عند الضفة الغربية من النهر وعلى مسافة حوالي نصف ميل منها. وللخيام التركية منظرها الجميل جداً فالبعض منها أخضر اللون والبعض الآخر أحمر وأبيض ويتألف الجيش هنا من حوالي ستة آلاف فارس ولباشا الجيش سفينتان مسلحتان تحرسانه عند النهر وكانت حمولة كل منهما زهاء مائة وخمسين طناً وقد بنيت على غرار سفن «الأنديز الشرقية»[1].

ولقد أرسل هذا الجيش لمقاتلة بعض العرب المتمردين في هذه المنطقة وهم الذين قتلوا شيخ «الحلة» وعدداً من موظفي الحكومة التركية. ولقد قام دليلنا بارتداء أحسن ملابسه وتوجه لزيارة باشا الجيش هناك.

في الساعة الثالثة من صباح يوم السبت الثامن من تموز أقلعنا بزوارقنا وواصلنا التجديف والسحب بلا انقطاع حتى الساعة الثانية عشرة ظهراً حين آوينا إلى ظلال أشجار الصفصاف للاستراحة هناك زهاء ثلاث ساعات كان مجرى النهر يتموج من الجنوب الغربي حتى الغرب. وكانت روائح كريهة لا تطاق تنبعث من الضفاف الغربية للنهر. وقد أخبرنا

(1) المقصود بها جزر الأنديز شرقي الهند وهي من المستعمرات الإنكليزية - المترجم.

أن تلك الروائح صادرة عن جثث بعض القتلى من العرب الذين فتك بهم الجيش التركي. كما قيل لنا أيضاً أن عدداً من زعماء العرب المتمردين قد استطاعوا الهرب حين اقتراب الجيش مخلفين وراءهم قطعان مواشيهم التي استولي الجند عليها بأمر من قائد الجيش وأرسلت إلى بغداد لتباع فيها.

واستأنفنا سفرنا بعد انقضاء الليل في الساعة الرابعة صباحاً حتى الثانية عشرة ثم أمضينا ساعة في مطاردة عجل وقتله وبعد حركة وتوقف واصلنا السير إلى السادسة والنصف مساء.

أخذت بندقيتي واصطحبت معي أحد الأعراب وخرجت للصيد فاصطدت عدداً من الطيور وخاصة بعض الدراج الجميل الشكل والذي يبلغ حجمه حجم الدراج الإنكليزي.

ولقد ظهر لنا أن هذا الجزء من الأرض لم يتم زرعه قبلاً كما أنني لم ألمح آثار خضار فيه ما عدا المحلات القريبة من ضفاف النهر والتي تغطيها بصفة عامة غابات كثيفة من الصفصاف والشجيرات. والعرب مرغمون على أن يشقوا لهم ممرات عبر الغابة لكي تصل منها مواشيهم وأغنامهم إلى النهر كما أن ضفاف النهر في بعض المناطق مرتفعة الأمر للذي يضطرهم إلى شقها وفتح الطريق فيها إلى حافة الماء.

شاهدنا عند النهاية العليا لجزيرة صغيرة وسط النهر

حطام سفينة شراعية كبيرة غاص القسم الأعظم منها في الماء وكانت هذه السفينة قد ضاعت هناك قبل ثلاثة أسابيع وقيمتها تبلغ عشرة «الكاك» ربية[1] وتحمل على ظهرها سلعاً بمبلغ أربعة الكاك دولار إسباني وهي محملة بالنحاس ومتجهة إلى البصرة وقد وضع مالكو السفينة حراساً يحرسونها إلى أن يسحبوها بعد أن تهبط المياه إلى أدنى درجة وذلك لا يتم إلا قبيل عيد الميلاد.

ومع أن عرض النهر هنا حوالي ميلين إلا أن الحارسين الذين أوكلت بهما حراسة السفينة يقطعان النهر سباحة وهما يستخدمان لهذا الغرض جلد الماعز ينفخ بشكل كيس هوائي ويوضع تحت صدر الراكب فيمسكه بإحدى يديه بينما يروح يحرك اليد الأخرى إلى الأمام في حركة مساوقة لحركة القدمين وبهذه الطريقة يعبران النهر أسرع مما يعبره الزورق[2]. ويحدث أحياناً أن يكوروا ملابسهم وحتى أسلحتهم فوق رؤوسهم ويحتفظون بها جافة لم يمسسها رذاذ الماء أبداً. وقد أنبأنا هؤلاء الرجال بأننا سنتمتع براحة أوسع على الضفة المقابلة نظراً لوجود غابة صغيرة هناك ولقد فعلنا ذلك وعبرنا النهر في الساعة التاسعة.

---

(1) اللك كلمة تركية تعادل (ألف) ـ المترجم.

(2) يسمي العوام جلد الماعز هذا (بالجراب) ولقد كان عماد الأرماث التي يبنى من الخشب وتستعمل لنقل السلع من شمال العراق إلى جنوبه ـ المترجم.

وقبل أن نبادر السير صباح يوم الاثنين العاشر من تموز زارنا عدد من العرب القاطنين في المنطقة حيث كانت بيوتهم تمتد إلى اليمين والشمال على مد البصر وحيث كانت قطعان هائلة من المواشي والأغنام من بين ممتلكاتهم. كنا نشعر بالأمن تماماً بين هؤلاء الناس وقد أخبرنا دليلنا بأننا قد نجونا من منطقة الخطر كلياً بعد أن أصبحنا على مقربة من أدنى مركز للحكومة. بدأنا سيرنا عند شروق الشمس ومررنا بقطعان من الإبل ترعى على ضفاف النهر. كان النهر يسير متعرجاً حتى الساعة الحادية عشر حين دخلنا هوراً يمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي وكان التيار فيها سريعاً وعرض ذلك الهور زهاء الميل ونصف الميل.

تهيأت لي هنا فرصة مراقبة الرياح الحارة التي يسميها السكان اسم «سميل»[1] والتي تكون في بعض الأحيان مهلكة وخاصة في مثل هذا الفصل. فهذه الرياح تكون شديدة الخطر ما بين الساعة الثانية عشرة والثالثة حيث يكون الجو في أقسى حرارته في مثل ذلك الوقت. وتعتمد قوة هذه الرياح على

---

(1) أورد المؤلف هذا الاسم لتلك الرياح في أماكن عديدة من رحلته فقد أتى على ذكرها حين كان في منطقة الكوت ثم ذكرها ثانية في الطريق ما بين أربيل والموصل والذي أعتقده أن هذه الرياح هي المعروفة لدى سكان جنوب العراق باسم السموم في حين يسميها سكان الشمال خاصة في منطقة أربيل وكويسنجق (رشبا) وتكون عادة شديدة الحرارة كثيرة العواصف تستمر عدة أيام بلا انقطاع وتهب على الأكثر في أواسط الصيف ـ المترجم.

الأرض التي تمر فوقها فإذا ما مرت فوق صحراء لا زرع فيها فإنها تسير بسرعة خارقة ويكون تقدمها أحياناً معاكساً لمجرى الهواء الاعتيادي أما إذا مرت فوق أرض مزروعة فإن خفتها تتقلص وتفقد الشيء الكثير من شدتها.

أما إذا ما مرت فوق المياه فإنها تفقد قوتها الكهربية وتخمد ولقد كنت أشعر أحياناً بتأثيرها عبر النهر الذي لم يكن عرضه ليقل عن ميل.

وقد حدث مثال لذلك هنا. كان المستر ستيفنز يستحم في النهر وكان يرتدي سروالاً تركياً وعند عودته من الماء هبت ريح حارة عبر النهر فجففت سرواله وبدنه في لحظة خاطفة وقد قال لي لو أن شخصاً آخر تحدث إليه عما حدث له لما صدقه. ولقد كنت نفسي حاضراً وأحسست بقوة الريح ولكن هل كان المستر ستيفنز مشكوكاً في قوله؟

لم يكن الرئيس ريد، الذي اعتاد أن يصحبني في القنص لأنه مغرم بهذه المتعة مثل غرامي، في حالة جيدة وقد افترقت عن صحبته منذ أسبوع مضى فلقد أقعدته الحمى الحارة المفرطة حتى لم يعد يستطيع الوقوف على قدميه. كذلك كانت وطأة الحرارة شديدة جداً على ملاحينا ولذلك كنا نسرع في أوقات الظهيرة بزوارقنا إلى الضفاف الشرقية من النهر لنستريح في ظلال الأشجار زهاء ساعتين.

ما أن تجولت في الغابة وبلغت حافة الصحراء حتى شاهدت بعض الدراج على مسافة قصيرة وحاولت الحصول على إطلاقات ولكن لم يكن معي سوى زوج نعال ولقد شعرت بالمضايقة الشديدة من حر الصحراء الشديد وكنت فرحاً لأن أعود ثانية إلى النهر ذلك وإن كانت قدماي لم تحترقا إلا أن جلدهما سرعان ما تصلب وظهرت عليه القشور. وكنت قبلاً أنتعل حذاء قوياً من الجلد وجدته ملائماً تماماً للوقاية من الحرارة ومن الزواحف والحشرات السامة التي كانت وفيرة العدد في بعض الأماكن ولذلك قررت أن لا أحاول الخروج إلى الصحراء وأطرافها مرة ثانية إلا بعد أن أجهز نفسي بكل ما هو ضروري.

استأنفنا رحلتنا في الساعة الثانية وواصلنا التجديف والسحب بمحاذاة الضفة الشرقية حتى الساعة السادسة والنصف.

كانت قدماي متضررتين مما عانيته ظهر اليوم السابق وقد امتدت وراءنا غابة واسعة كثيفة قال رجالنا أن فيها كثيراً من الأسود، ولكنني اكتفيت بصيد الحمام على شاطىء النهر وعلى مقربة من زوارقنا حيث كانت هذه الطيور تقبل لشرب الماء عند المغيب.

في الساعة الرابعة من صباح يوم الثلاثاء الحادي عشر من تموز استأنفنا الرحلة بمحاذاة الضفة الشرقية وكان النهر

يتعرج من الشمال الشرقي إلى الغرب وعند الظهيرة عبرنا النهر وأخذنا نسير والضفة الغربية حتى المساء حين عبرنا النهر مرة أخرى إلى الضفة الشرقية ونصبنا خيامنا هناك لقضاء الليل على مقربة من مضرب بعض الأعراب.

وإذ لم يتوقع دليلنا أي شر من الاعراب المجاورين لنا فقد استلقى على مقربة من خيامنا وراح في سبات عميق.

أما الرئيس ريد فقد ازدادت حالته الصحية سوءاً وكان من المحتم أن يهلك بسبب انعدام المساعدة الطبية. لقد أقلقه التهاب الصفراء وكان يشكو من ألم في كبده. وكنت قد جلبت بعض الأدوية معي من الهند التي صنعها لي طبيبنا ورغبت في إعطاء الرئيس بعض الدواء لإنقاذه من الصفراء ولكنني إذ فحصت أدويتي، وكانت محفوظة في علبة من الصفيح، وجدتها كلها قد تلفت وذلك حين تعطلت سفينتنا عند جزيرة الكرك.

لاحظت في هذه المنطقة عدداً كبيراً من طيور البجع وهي من الطيور الهائلة التي تستطيع الطيران ولقد أطلقت النار عليها ولكنني لم أستطع أن أمسك بواحد منها.

استأنفنا سفرنا في الساعة الرابعة من صبيحة اليوم التالي حتى الساعة الثانية ومن ثم استرحنا ساعة واحدة وكان النهر كالسابق يتعرج من الشمال الشرقي إلى الغرب وهناك

مررنا ببعض «الكرافات» العائدة للجيش التركي. كانت مسطرة على الشاطىء في وضع استراحة وكانت إحدى تلك الكرافات محملة بالرقي. وواصلنا حركتنا حتى الساعة السادسة مساء وقد انقطعت حركة السير هذه بنشوب خصام بين ملاحينا الذين أخذوا يقتتلون وسط النهر ويضرب بعضهم البعض الآخر بالرماح والهراوات ولقد تحطمت بعض الرماح ولكن أحداً منهم لم يفقد حياته ولقد بقي دليلنا هادئاً وسط هذه المعمعة لأن النزاع قام بين الملاحين أنفسهم ولم يكن أحد من رجاله ليهتم به.

غادرنا المكان الذي آوينا إليه ليلاً في الساعة الرابعة من صباح الخميس الثالث عشر من تموز وسرنا باتجاه الضفة الشرقية للنهر وكنا نلاحظ أن التيار بتصديه لهذه الضفاف دواماً قد أزاح أجزاء كبيرة منها بشكل ملموس. وقد كانت هذه الضفاف تعلو سطح الماء بحوالي عشرة أقدام وشاهدنا عليها أسس أبنية قديمة مشيدة معظمها بالآجر وقد طليت بالسمنت كيما تقاوم تأثير المياه. كما شاهدنا كذلك عدداً ظاهراً من الأوعية الفخارية كالجرار وغيرها كان البعض منها نصف مكشوف والبعض الآخر يوشك أن يسقط في النهر وكانت بعض هذه المباني تتألف من بناء منفرد. ويستدير النهر هنا إلى الجنوب زهاء عشرة أميال فلا يترك سوى رقبة ضيقة من اليابسة ما تزال تقوم عليها كثير من الجدر والأبراج العالية

التي تؤلف أجزاء مدينة «طيسفون» القديمة[1].

صادفنا في مسيرتنا هنا عدداً من السفن الضخمة حمولة البعض منها نحو منتي طن وهي محملة بأخشاب الوقود ومتجهة نحو بغداد وقد بدا لي أنها متناسقة الصنع وعلى نمط واحد كما أنها سيئة الغرض من الاستعمال الأمر الذي حملني على تصويرها.

فدفة السفينة تتألف من عدد من الأخشاب غير المصقولة صفت إلى بعضها البعض وقد وجهت بذراع الدفة وأنشئت هذه السفن من مواد خشنة ثم طليت بطبقة من القار. والمعتاد أن يزين رأسها المرتفع بأنواع من الأصداف والزجاج تثبت في القار وهي تشكل عملاً بدائياً من أعمال صنع السفن وتحتاج إلى عشرين وبعض الأحيان إلى ثلاثين رجلاً ليسحبوها ولكن حين تهب الرياح شديدة لا يستطيع هذا العدد من الرجال حتى أن يحركوها.

إن بحثي عن السبب الذي يؤدي إلى استعمال أمثال هذه السفن لغير الأغراض الصحيحة التي تستعمل لها قد

---

(1) هي المعروفة باسم سلمان باك في الوقت الحاضر والتي أقيم فيها إيوان كسرى قبل أكثر من ألف وخمسمائة سنة وما يزال الطوق الذي يمثل مدخل الإيوان قائماً ويبلغ ارتفاعه زهاء مائة وأربعين متراً وقد كان موقع طيسفون في الأصل مضرباً لخيام ملوك الفرثيين قبل الميلاد أما المدينة فقد أنشئت في القرن الرابع الميلادي. (انظر سيتن لويد (المدن الدارسة في العراق).

أوضح لي أن أي امرىء له إلمام بسيط بفن صنع السفن لا بد وأن يكتشف عدم ملائمتها ويلاحظ أن أية سفينة تبني على غرار بوارجنا التجارية سوف تستطيع حمل وسق أكثر، وتسحب ماء أقل ولا تحتاج إلا إلى الثلث من عدد الرجال. على أن الجواب الذي ظفرت به على تحرياتي تلك قد أقنعني بالخطر الكامن وراء نشر البدع والمخترعات بين أمثال هؤلاء الناس. فلقد قيل لي أن الأطفال ينشأون ليواصلوا بصفة حتمية ذات العمل الذي كان يزاوله أجدادهم. وهكذا فإن أبناء النجار يصبحون كلهم نجارين، وأبناء الملاح كلهم ملاحون وهلمجرا. فما دام أجدادهم كانوا على الدوام يبنون السفن على نفس الشاكلة فإنه سيعد من الخطأ الكبير في نظرهم إحداث أي تغيير في الشكل الذي اعتاده أجدادهم. وهذا بحد ذاته يحل المشكلة ويظهر مدى التعصب الناشىء بينهم في مثل هذه الأمور.

ولقد استمر هؤلاء الناس منذ المراحل المبكرة يتكلمون ذات اللغة ويرتدون نفس النوع من الملابس، ويأكلون ويشربون بنفس الطريقة.

وأسلوبهم في الحرب ما يزال على حاله السابق هو الآخر ويندر حدوث أدنى تغيير في طرائقهم وعاداتهم وأهوائهم وانفعالاتهم وإن كانت كل أمة من الأمم قد مرت بعصر ثوري خلال قرون قلائل. فلو أن أحد الناس هنا اقتنع

بوجود عيب في أي فرع من فروع التجارة وأراد أن يجري تحسيناً فيه فإن الشكوى سترفع ضده إلى «المفتي» وقد يدفع ذلك الرجل عن محاولته الجريئة تلك ثمناً باهظاً قد يكلفه حياته[1].

مررنا عند الغرب بمدينة صغيرة على الضفة الغربية من النهر تدعى «جفر»[2] وهي وإن كانت صغيرة إلا أنها يحتفل بها كثيراً لوجود جامع جميل فيها.

وفي الساعة التاسعة اجتزنا مصب نهر كبير يجري من

---

(1) يبدو في قول المؤلف هذا شيء كبير من التهويل والمبالغة وهو نتيجة فكرة مغلوطة كثيراً ما يقع فيها معظم الأجانب الذي يكتبون عن أحوال العرب والظاهر أن الذي يقصده المؤلف، وهو قد استقاه من أفواه الناس الذين اتصل بهم أثناء رحلته في العراق، هو أن رجال الدين لهم سلطة روحية وزمنية واسعة بين أفراد الشعب وأن هذه السلطة قد جعلت رجال الدين هؤلاء يتدخلون في كثير من الأمور ومنها محاربة استعمال المخترعات والتحسينات باعتبارها بدعاً لا يقرها الدين. ومع أنه لا يندر وجود عدد كبير من أدعياء الدين ممن يقاومون كل جديد إلا أن أغلبية رجال الدين لم يقفوا موقف المقاوم للمخترعات الحديثة كيما يظن بعض الغربيين ذلك ـ المترجم.

(2) ذكر المؤلف أن هذه المدينة الصغيرة تدعى «جفر Javer» وأنها كانت قائمة على الجانب الغربي من النهر وأن هذه المدينة تقع قبل أن يصب نهر ديالى بنهر دجلة ببضعة أميال فهي حسب تحديد المؤلف لموقعها على الخريطة التي رسمها والملحقة بهذا الكتاب تقع قرب الدورة فلو كانت مقابل سلمان باك (طيسفون) لانصرف الذهن إلى مدينة سيلوسيا (سيلوقة) التأريخية التي بناها سيلوكوس أحد قواد الاسكندر الكبير ولمسافة عشرين ميلاً جنوبي بغداد. وقد ذكر مؤرخو الإسلام وجغرافيوهم وفي مقدمتهم ياقوت الحموي وابن الخطيب البغدادي وابن الجوزي أن على الجانب الغربي من دجلة قبالة طاق كسرى

الشمال يدعى شط «ديالى» وفي التاسعة والنصف أسرعنا بزوارقنا إلى الضفة الشرقية التي ترتفع عن سطح الماء زهاء اثني عشر قدماً كانت هذه الضفاف متشابهة شديدة الانحدار لم نستطع تسلقها إلا بمشقة ظاهرة وكانت قمم هذه الضفاف خشنة تغطيها الأحراش الكثيفة ولذلك اضطررنا إلى إزالة تلك الأحراش كيما نستقر فيها ولقد وجدت بين تلك الأحراش عدداً من نبات الأوراد ذي الرائحة العطرة والمذاق الحلو.



مدينة تدعى (بهرسير) وهي إحدى المدائن السبع التي بناها كسرى في الموضع المعروف اليوم بسلمان باك وقد تكون هذه هي ذات المدينة التي رآها المؤلف وسماها بالحفر ـ المترجم.

(انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ج ٤ ص ٥١٥ ومناقب بغداد لابن الجوزي ص ٣٥).


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الرابع

في بغداد

استأنفنا حركتنا في الساعة الثانية من صباح يوم الجمعة الرابع عشر من تموز 1797 حتى الساعة الثانية بعد الظهر حين وصلنا بغداد كان النهر شديد الالتواء والتعرج وكان على شكل دائري تقريباً، ومع ذلك فإن المكان الذي بدأنا الحركة منه في الصباح لا يبعد أكثر من ثلاث ساعات مشياً على الأقدام.

بلغنا منزل السيد ج.ل. رينو (وكيل المستر مانستي القنصل البريطاني في البصرة) وكان هذا المنزل يقوم بشكل ملائم جداً على حافة النهر.

إن الإنكليزي يتمتع في بغداد بامتياز لا يتمتع به أحد غيره من رعايا الأمم الأخرى. فهو مهما كان يحمل معه من متاع وبدلاً من أن يقتاد إلى دائرة الكمرك، يسمح له بأن ينقل متاعه إلى المكان الذي سيقيم فيه وإذ ذاك يرسل أحد ضباط الكمرك لفحص متاعه هناك.

وقد تم منح هذا الامتياز بناء على مطالبة المستر مانستي ولصالح أبناء قومه ولذلك سيظل هذا الامتياز على الدوام مفيداً لمصلحة المسافر وملائماً له تماماً.

تقع بغداد على الضفة الشرقية من نهر دجلة وهي مدينة واسعة مكتظة بالسكان تمتد على ضفاف النهر حوالي ثلاثة أميال أما طول أسوارها من حافة النهر فيبلغ زهاء الميلين وتعطيها هذه الأسوار شكل مربع مستطيل ومنازلها وإن كانت مغايرة للمنازل الأوروبية إلا أنها أفضل من منازل البصرة كثيراً وإن كانت على ذات النمط.

ولقد بنيت عدة مبان عامة كالجوامع والمساجد والحمامات من الحجارة وزينت مظاهرها تزييناً حسناً.

وتوجد فيها سوق واسعة مزودة بمختلف أنواع المواد ولكن الأسعار فيها أعلى من أسواق البصرة بصفة عامة.

والأرمن هنا يؤلفون التجار الرئيسين والمعامل المستعملة في بغداد قليلة وهي محدودة لإنتاج المواد ذات الاستعمال المباشر كالأغذية والملابس ومواد السراجة وأدوات الطبخ.

ويبعث الأرمن[1] الموجودون في الموصل عن طريق

---

(1) يظهر من أقوال المؤلف أنه يعتبر جميع النصارى الموجودين في بغداد من الأرمن. ومع أنه كانت بعض الشخصيات الأرمنية مبرزة في عالم التجارة ببغداد =

دجلة بكميات كبيرة من النحاس تنقل في ارماث من الأخشاب التي تشد إلى بعضها بعضاً ومتى وصل الرمث إلى بغداد بيعت أخشابه فيها لأنها جد نادرة هناك.

ومن ثم يشحن النحاس إلى البصرة في سفن شراعية تستغرق رحلتها رواحاً ومجيئاً زهاء ستة أشهر ويكون النحاس على شكل صفائح صغيرة مستديرة يبلغ عرضها زهاء ست بوصات وسمكها نحو بوصتين عند الوسط ثم تأخذ بالرقة حتى الحواشي وهو من نفس النوع الذي يجري صنعه في إنكلترا.

إن هذه التجارة التي لم يكن أحداً قبلاً يمارسها قد ازدادت بسرعة فغدت تجري بنطاق واسع ذلك لأن بعض السفن التي تبحر من البصرة تكون محملة كلها أحياناً بالنحاس وحده. وأنا مقتنع أن هذه السلعة ستثير بمرور الوقت سخط أصحاب المعامل الإنكليزية.. فالعمل في هذه البلدان أقل نفقة بكثير مما هو عليه في أوروبا، وهذا مما يساعد الصناع على نقل مصنوعاتهم إلى السوق بسعر أرخص ويهيء ربحاً أوفر للمشتغلين فيها.

ومع أن بغداد مشيدة بشكل أفضل من أية مدينة أخرى

= والبصرة آنذاك إلا أن نسبة الأرمن هذه ضئيلة جداً بالنسبة لبقية التجار من نصارى ويهود ـ المترجم.

في هذا الجزء من العالم، إلا أنها تختلف كثيراً عن المدن الأوروبية فكل دار فيها يعطي مظهر السجن الذي أتينا على وصفه في البصرة ولكنه يتألف من مواد أفضل هي على الغالب، آجر وأخشاب جيدة من هذه الأرمات التي تطاف في دجلة.

وشوارع بغداد ضيقة جداً ومتربة. وكان علي أن أقطع كل ليلة نصف ميل لأبلغ مرقدي. والمعتاد أن يبدأ النوم في الساعة الحادية عشرة ليلاً وأن أصطحب معي خادماً تركياً يحمل بيده مصباحاً إذ أنه من الخطر جداً التجول في مثل هذا الوقت من دون ضياء. وتكثر العقارب والخنافس والحشرات القارصة الأخرى بأعداد هائلة. وكنت أقتل كل ليلة ما يتراوح بين أربع وخمس عقارب وهي من نوع كبير أسود اللون ولدغاتها قاتلة غالباً.

وفي هذا الفصل من السنة ينام جميع الناس على سطوح المنازل وكنت أستمتع دواماً وأنا أشاهد الناس يهبطون من السطوح عند شروق الشمس وهم يحملون أفرشتهم بأيديهم لأنه ما أن تصعد الشمس في الأفق حتى يغدو الجو حاراً بشكل لا يطاق. ولقد علمت فيما بعد أن مجرد التطلع من وراء الجدار القائم على السطح يعتبر مسلكاً محفوفاً بالخطر ذلك لأن الأتراك لا يترددون لحظة واحدة في إطلاق النار على أي شخص يكتشفون أنه كان يتطلع إلى

منازلهم[1].

كانت الدار التي كنت أنام فيها تقع على مقربة من وسط المدينة وهي مرتفعة جداً ولا توجد دار أعلى منها في المدينة عدا منابر المساجد وبناية المقر الحكومي وبعض الدور العائدة إلى الوزراء وكبار الضباط.

ولقد شاهدت بغداد عدداً كبيراً من اللقالق وهي أكبر حجماً وأشد اختلافاً عن اللقالق التي نعرفها في أوروبا فهي تبني أعشاشها على قمم المنائر وأعلى المنازل حيث لا تمس بأذى وتكون شديدة الألفة في النهاية ونظراً لانعدام القنوات التي تزود المدينة بالماء فإن كثيراً من الفقراء يستخدمون لنقل الماء من النهر في ظروف من الجلد يحملها البعض منهم على ظهورهم بينما يحملها البعض الآخر على الحمير والبغال.

وإذ نتجاوز السور في الجهة الغربية من المدينة تبدو الأرض صحراء قاحلة لا أثر للنبات فيها أبداً عدا ضفاف النهر. أما في شمال المدينة فإننا نجد ذات العراء فلا ماء ولا زرع. وتمتد على ضفة النهر من ناحية الشرق بساتين

---

(1) لا يستبعد هذا الأمر في نظرنا في تلك الأيام حين كان الأتراك يتصرفون بالعراق وأهله تصرف المالك بملكه وحين لم تكن أرواح الناس وأموالهم مصونة من العدوان لا سيما إذا وقع ذلك العدوان من كبار موظفي الأتراك ورجال الجيش التركي ـ المترجم.

فخمة إلى مسافة أربعة أميال وتقوم هناك دور كثيرة مليء بالسكان وهي من دون أسوار.

على أن المدينة تزود بالفواكه والخضراوات من الجانب المقابل للنهر حيث تكثر البساتين والمزارع. وللباشا وبعض الشخصيات البارزة منازل ريفية في المناطق المجاورة لبغداد ومنها موقع مدينة «سليوسيا»[1] التي بناها سليوكوس أحد جنرالات الاسكندر[2] والذي نجح في حكم قسم من هذه البلاد وما تزال أعداد من النقود التي ضربها تشاهد في بغداد. وتلغ قيمة العملة الذهبية منها جنيهين وهي تحمل ذات الرأس البشرية التي تحملها بقية النقود الرومانية ولكن لهذه الرأس لحية طويلة.

---

(1) سليوسيا «أو سيلوقية كما سماها العرب بذلك» أنشأها سيلوكوس أحد الجنرالات العاملين في جيش الاسكندر المقدوني الذي افتتح العراق في القرن الرابع قبل الميلاد وقد نشب الخلاف بعد وفاته بين قواده حتى تغلب عليهم سيلوكوس في النهاية فبنى مدينة سيلوسيا هذه واتخذها عاصمة له في العراق وقد استمر حكم عائلة سيلوكوس مائة وخمسة وسبعين سنة. ولقد غزا الفرس البارثيون العراق واستولوا على سيلوسيا في سنة 247 قبل الميلاد فخربوها وبنوا لهم عاصمة جديدة هي طيسفون التي تقع مقابل سيلوسيا وعلى الجانب الشرقي من دجلة ـ المترجم.

(انظر سيتن لويد المدن الدارسة في العراق ص ٦٢).

(2) المقصود به الاسكندر المقدوني الكبير الذي افتتح العراق في القرن الرابع قبل الميلاد وباسمه سميت مدينة الاسكندرية الحالية ولقد افتتح الاسكندر العراق سنة 336 قبل الميلاد وكان عمره عشرين سنة وبعد أن حكم ثلاث عشرة سنة مات ببابل سنة 303 ق.م ولم يكن عمره ليتجاوز ثلاث وثلاثين سنة ـ المترجم.

وعلى مسافة غير بعيدة باتجاه الحلة ما تزال تشاهد بعض خرائب بابل القديمة.

۞ ۞ ۞

خلال مكوثي في بغداد كان الجيش التركي المؤلف من ستة آلاف فارس قد عاد من المكان الذي كان يعسكر فيه على ضفاف نهر دجلة.

وكان منظراً خلاّباً حين شرع ذلك الجيش يعبر النهر على جسر يقوم فوق عوامات في النهاية العليا من المدينة عند شروق الشمس.

وقبل وصول الجيش إلى بغداد بيوم واحد بعثت أعداد كبيرة من الأغنام والماشية بيعت بحوالي «لك» ونصف «لك» قرش. وقد كانت هذه القطعان من الماشية ملكاً للعرب الثائرين.

ويقال أن بغداد في الوقت الحاضر تضم كنوزاً أكثر مما تضمه أية مدينة أخرى مماثلة لها في المساحة في العالم كله. فلقد عثر على كميات هائلة من السبائك والنقود في خزانة آخر «كخيا»[1] لبغداد. وكان هذا الكخيا قد قتل قبل بضعة أشهر خلت على أيدي متآمرين استخدموا ضده من قبل

(1) الكخيا أو الكهيا كلمة تركية تعادل منصب الوزير الأول في العهد العثماني - المترجم.

الكخيا الحالي وحين استولى الباشا على أمواله وأجرى تعداداً صحيحاً لخزانته ظهر أنه كان يملك ما يزيد عن ثلاثة ملايين باون استرليني.

ويقص كثير من التجار القصة التالية عن الكخيا الأخير والبعض منهم يحاول لسبب حزنه أن يفندها وهذه تدل على الكيفية التي ينفذ بها كثير من الوزراء والباشوات الأتراك حكمهم الإرهابي واضطهادهم للناس.

فهم يقولون أن الكخيا كان رجلاً ذا قابليات ممتازة وكان يثق بالباشا ويراقب مسلك الضباط والموظفين بكل دقة متناهية ومع ذلك فإن الكثير من هؤلاء الضباط والموظفين قد اشتركوا في التآمر عليه. زد على ذلك أنه كان بخيلاً جداً شديد الطمع ابتدع عدة وسائل لمضاعفة أمواله.

ومن هذه الوسائل التي برهنت على فائدتها أنه كان يعين جواسيس يراقبون التجار في الأسواق فمتى ما سمع بوجود خلاف بينهم استدعى واحداً منهم واستجوبه بشأن الموضوع الذي نشأ الخلاف بسببه. وبدعوى حاجة الحكومة إلى المال يروح يسأل ذلك التاجر عما يستطيع أن يقدمه من نقد في سبيل أن يربح قضيته والمعتاد أن يكون هذا المبلغ جزءاً من ثروة المشتكي وقد يبلغ في بعض الأحايين وبسبب اشتداد الخصومة بين الأطراف، أربعة آلاف أو خمسة آلاف قرش ثم يبعث بعد هذا وراء الفريق الثاني ويسأله عن سبب

الحادث وعن المبلغ الذي يستطيع دفعه لكسب دعواه حتى إذا ما تم ذلك يقابل الطرفين ويقرر الحكم لصالح من يدفع مبلغاً أعلى ثم يعيد إلى الثاني نقوده بعد أن يرشقه بسهام من كلمات التقريع والتعزيز.

وقد أدى هذا الإجراء الذي سار عليه الكخيا إلى تأثير غير حسن في النهاية فقد وجد التجار أن من الحماقة أن يتخاصموا ولذلك أخذوا يسوون خلافاتهم فيما بينهم ويحاولون أن لا تطرق تلك الخلافات مسامع الكخيا.

والكخيا الحالي لا يعرف القراءة ولا الكتابة وكان في الأصل فتى من الأرقاء الجيورجيين[1] استخدم في «الحرم» ومن ثم أعطي له منصب مدهش في إحدى المؤسسات العسكرية وما أن علم بأن ابنة الباشا تود الزواج منه حتى استطاع أن يؤثر على بعض الموظفين العسكريين والمدنيين وأن يقتل الكخيا وهو عائد من ديوانه الرسمي ذات مساء وإذ

---

(1) اشتهرت جورجيا وهي إحدى المقاطعات الروسية المحاذية لأرمينيا وتعرف ببلاد الكرج منذ بداية حكم العباسيين حتى انتهاء السلطة العثمانية بعد الحرب العالمية بجمال أبنائها. وكان الفتيان والفتيات يشترون أو يسرقون وينقلون من هناك ليباعوا في سوق النخاسة في العراق والشام وكان لهؤلاء الفتيان والفتيات أبعد الأثر في إفساد الطبقة الحاكمة العباسية ومن تولى الحكم بعدها وفي تقويض دولة بني العباس إذ كثيراً ما يحدث أن يستولي أحد هؤلاء الغلمان على الحكم بعد أن يقتل الخليفة أو يتآمر عليه وظل ذلك دأبهم حتى في عهد الحكم العثماني في العراق ـ المترجم.

ألم الباشا بالحادث حتى هرب والتجأ إلى الحرم لحماية نفسه وبقي متخفياً هناك إلى أن وصلته الأنباء بعدم وجود أي ضرر عليه إذا ما أظهر نفسه.

وحدث في المدينة هرج ومرج استمر بضعة أيام ولكن الحالة ما لبثت أن هدأت بعد أن صدرت الأوامر معلنة أن كل من يعثر عليه وهو يحمل السلاح في الشارع سوف يعدم حالاً. وسرعان ما عين الكخيا الحالي خلفاً للكخيا السابق وتزوج من ابنة الباشا.

وحين غدا ضرورياً إبلاغ هذا الحادث إلى العاصمة اسطنبول انتشرت الإشاعات بأن الكخيا السابق كان يعتزم أن يسم الباشا وأن هذا هو السبب الذي أدى إلى مقتله.

لقد كنت أرى الكخيا الحالي في أغلب الأحيان. كان يبدو عليه أن عمره يقل عن الثلاثين سنة وهو جميل ظريف ذو شخصية جذابة جداً ولكن على أكثر احتمال لن يستمر في هذا المنصب طويلاً ذلك لأن حياة الأمراء في هذه البلاد غالية جداً وقد تكون أغلى مما في أي بلد آخر على وجه هذه الكرة الأرضية. فالمعروف أن ما لا يقل عن سبعة من هؤلاء الحكام قد اغتيلوا خلال السنوات الاثنتي عشرة الماضية.

وكانت آخر حوادث الاغتيال هذه هي مصرع الشيخ ثويني الشهير الذي ذبح حين كان نائماً في خيمته من قبل أحد العبيد وقد وقع هذا الحادث قبل أسبوع خلا، ووصلت الأنباء عنه إلى بغداد بعد وصولنا إليها فأحدثت قلقاً كبيراً

لدى الحكومة. ذلك لأنها وضعت ثقة كبرى في القابليات الممتازة التي اشتهر بها الشيخ ثويني ولأنها اعتمدت عليه نهائياً في صد تقدم الوهابيين الذين سبق لهم أن هاجموا العراق ودحروا الجيش التركي وغدا مفهوماً أنهم في طريقهم لاحتلال البصرة.

❀ ❀ ❀

قليل جداً هو عدد الأوروبيين الذين يزاولون الأعمال التجارية في بغداد أو يحتفظون لهم بقناصل فيها. فالإنكليز مثلاً ليس لديهم قنصل في بغداد ولكن أعمالهم تدار من قبل أحد الأرمن المدعو «خوجه مايكل» وهو رجل محترم. ولقد كنت أحمل رسائل معي إلى أرمني آخر يدعى خوجه سطيفان بابك وهو من الأثرياء الكبار ويتكلم الإنكليزية بطلاقة وأنا أعتقد أنه المقيم الوحيد في المدينة الذي يلم باللغة الإنكليزية.

أما الفرنسيون فلديهم في الوقت الحاضر قنصل في بغداد يدعى «روسو» وهو من أقارب الكاتب الفرنسي الشهير جان جاك روسو[1] ولكن الفرنسيين مع ذلك لا يمارسون

---

(1) جان جاك روسو (1712 ـ 1778) المفكر الفرنسي والكاتب الكبير الذي كان لأفكاره أثرها البارز في التمهيد للثورة الفرنسية الكبرى التي حطمت الإقطاع ومهدت لنهوض الطبقة الصناعية الجديدة في العالم ومن أشهر كتبه «إميل» و «هليويز الجديدة» ومذكراته الموسومة باسم اعترافات روسو ـ المترجم.

التجارة بنطاق واسع هنا وليست لديهم في الوقت الحاضر أية اتصالات مع الهند.

ولقد كان الفرنسيون خلال الحرب الحالية يحاولون إرسال السلع إلى الهند عن طريق البصرة ومسقط ولكن هذه السلع تلاقي معارضة شديدة من لدن ممثل شركة الهند الشرقية المقيم في البصرة ولقد وجدت في بغداد عدداً من الفرنسيين ممن يظهر عليهم أنهم لا يمارسون سوى أعمال ضئيلة وقد عرض علي كثير منهم خدماتهم كمترجمين أو رفاق سفر إلى اسطنبول ولكنني رفضت عروضهم تلك كخدم على الدوام وفي رحلة كهذه لما يثيره هذا الأمر من مشاكل ولذلك فإنني أوصي كل شخص يروم السفر بأن لا يستخدم عنده سوى أبناء البلد الذي يمر خلاله. وأنقل الحادث التالي للدلالة على الاحترام الذي يتمتع به الإنكليز هنا. فالمستر رينو وإن كان مجرد كاتب لدى المستر مانستي إلا أنه في الساعة الخامسة من بعد ظهر أحد الأيام كان ينتظر الباشا وذلك بغية الحصول منه على إذن لي بالسفر. وحين كان رينو يمر على مقربة من المقر الحكومي (السراي) سمع بعض الرجال وهم يعولون بشكل يرثى له جداً وإذ سأل عنهم قيل له أن هؤلاء قد حكم على كل واحد منهم بأن يجلد مائتي جلدة وهي عقوبة مساوية للإعدام تقريباً ولذلك طلب إلى هؤلاء أن يكفوا عن العويل لأنه لا يستطيع أن يتحمل سماع عويلهم (وكان البعض منهم قد تلقى أربع أو

خمس ضربات على أقدامه) وأنه سيتفاهم مع الباشا حول تخفيف عقوبتهم تلك. وما أن أفضى بهذا الأمر إلى الباشا حتى رد هذا قائلاً أنه نزولاً عند رغبة المستر رينو سوف لن يطلق سراحهم حسب وإنما سيبعث بهم إلى بيته ليكونوا تحت تصرفه نهائياً وما أن عاد المستر رينو من الباشا حتى أنبأنا بهذا الحادث. وفي حوالي الساعة التاسعة من ذلك المساء وإذ كنا نتناول العشاء على سطح الدار أحضر إلينا رجلان كلاهما عربيان وهما ما يزالان غير متأكدين من مصيرهما وقد أخبرهما المستر رينو، وكان يتكلم العربية بطلاقة كالإنكليزية، بأنه كان قد بحث مع الباشا أمر إطلاق سراحهما وأنهما الآن في كامل حريتهما لأن يذهبا حيثما يشاءان.

إنه لمستحل أن نعطي القارىء فكرة تامة عن التغيير الذي أصاب محيا ذينك الرجلين البائسين لدى سماعهما بهذا النبأ فلقد ركعا إلى الأرض وراحا يتضرعان إلى الله ورسوله في أن يحفظا حياة منقذهما.

كان الرئيس ريد في هذا الوقت مريضاً جداً ولم يكن هنالك أقل أمل في شفائه. وكان بقية أصحابي في صحة غير جيدة أيضاً. ولذلك شرعت أعد العدة لمغادرة بغداد وقد استطاع المستر رينو أن يحصل لي على جواز أو «فرمان» موقع من قبل الباشا، وهيأ لي أحد التتر ويدعى «سيد أحمد آغا» ليصحبني في السفر.

وقام «حافظ الأختام»[1] بزيارتنا حيث اعتبرت هذه الزيارة بمثابة تقدير عظيم لنا. وقد أعطى التتري توجيهات بحضوري في أن يكون حريصاً في المحافظة على شخصي وأموالي وإلا فإنه سيقطع رأسه. وقد تهيأت لي الآن أول فرصة لمشاهدة الاحتفال بنثر العطور على الأشخاص البارزين عادة ولكن حامل الأختام كان يمثل استثناء لعادة عامة سارية بين الأتراك. ذلك أنه لم يكن يدخن. فما أن حصل على إجازة حتى أعتمر بعمامة من الموسلين الأبيض وارتدى قفطاناً من الموسلين وهي الملابس الشائعة عند حضور أمثال هذه الاحتفالات.

أعدت لوازم التتري الذي سيصاحبني في سفري كما هيء الجواد الذي سأمتطيه في هذه الرحلة ورحت أستعد لمغادرة بغداد.

ومع أنني كنت سأسافر تحت عنوان «قنصل» إلا أنه كان من الضروري أن أرتدي اللباس الذي يرتديه التتر، وأن أتوقى من أن أمس بأذى على أيدي العوام كما هو الأمر دواماً حين يكتشفون وجود أوروبي، وهم يدعونه فرنجي[2].

---

(1) سماه المؤلف بالاسم التركي الشائع آنذاك «مرقدر».

(2) أعتقد أن المؤلف هنا قد وقع في خطأ كبير ذلك لأن عامة الشعب العراقي لم تكن حتى في ذلك الوقت لتنظر إلى الأجانب نظرة كما يشاع عنه وإذا كانت عدة حوادث قد وقعت لبعض هؤلاء الأجانب فإن القصد من العدوان عليهم لم يكن لأنهم أجانب وإنما كان مثل هذا العدوان يقع عليهم بسبب ما يملكون من مال وما شابه ذلك حيث تغري هذه الأمور بعض السقاة بالإجرام ـ المترجم.

ولقد حلقت رأسي ووجدت ذلك ذا فائدة كبيرة لأنه يظل بارداً على الدوام ولأنه أكثر ملائمة لارتداء ملابس التتر.

ودخلت في اتفاق تحريري مع خادمي التتري في أن أمنحه ثمانمائة قرش. خمسمائة قرش منها تدفع له نقداً في بغداد وقبل أن أغادرها، وما تبقى وهو ثلثمائة قرش أدفعها إليه حين أصل القسطنطينية سالماً. وقد وافق هو بدوره على أن لا يعني بأي مسافر آخر أو أية بضاعة معه أثناء رحلتنا وأخذت معي حوالات من بغداد إلى أسطنبول وذلك لكي أدفع منها بقية أجرة التتري، ولأهيء منها ما يفي بإكمال رحلتي ووصولي إلى إنكلترا. كما حملت معي أيضاً أوراق اعتماد على اسطنبول من المستر مانستي القنصل البريطاني في البصرة أفيد منها إذا ما احتجت إلى أية نقود هناك.

كان ملبسي يتألف من طربوش أصفر اللون يبلغ ارتفاعه زهاء قدم واحد وهو عريض عند القمة ومسطح عادة ثم يأخذ بالضيق إلى أن يغدو ملائماً للرأس أما الجزء السفلي من هذا الطربوش فقد لف بشريط أسود من جلد الغنم يبلغ عرضه حوالي أربع بوصات وقد غلف داخله بالكتان وخيط خياطة جيدة قوية في حين بطن القسم العلوي بالصوف بطانة متينة ولقد أعد هذا الطربوش لمقاومة أي سلاح وبذلك فهو خير محافظ للرأس. وهذا الطربوش، وهو ثقيل جداً، يبدو للوهلة الأولى غير مريح وهم يسمونه «قولباق»[1] ولا يرتديه سوى

(1) يطلق عليه العامة عندنا لفظة «كلاو» ـ المترجم.

التتر. أما بقية ملابسي فكانت تتألف من جاكتة رمادية اللون مبطنة بقماش حريري أسود فضفاض وهي تلتف بشكل مناسب على الجسم ولها أردان واسعة قصيرة وتتدلى الجاكتة حتى الركبة، ومن سروال تركي أزرق اللون ذي حواشي حريرية سوداء صنعت واسعة جداً ولكنها تزر بفوة حول الساق، وزوج حذاء قوي أحمر اللون يصعد فوق السروال حتى الركبة[1] أما الملابس الداخلية فهي عبارة عن جلباب تركي ذي أردان طويلة تزرر حول الرسغ، وقميص من دون ياقة. والمعتاد أن يدع الأتراك من مختلف الأصناف رقابهم عارية تماماً ويرتدي التتر بدورهم السراويل القصيرة التحتانية. أما أنا فقد ارتديت زوجاً من سراويل جلدية قوية تحت سراويلي الخارجية وقد وجدت ذلك ذا فائدة عظمى.

وشددت حزاماً قوياً يبلغ طوله ستة أقدام حول خصري شداً محكماً وقد علقت في هذا الحزام حافظتي التي تحتوي على خراطيش وربطت وسطي بحزام آخر سيفاً تركياً كبيراً.

ولقد وضعت ملابسي الأوروبية وكل ما لا أحتاج إليه أثناء السفرة في صندوق خاص. أما قمصاني وجواربي واللوازم الضرورية الأخرى التي كنت أحتاجها خلال الرحلة فقد وضعتها في حقيبة جلدية ثبتها خلف السرج.

(1) يقصد الحذاء المعروف عندنا باسم «الجزمة» ـ المترجم.

الفصل الخامس

في الطريق إلى كركوك والموصل

ما أن أكملنا عدتنا أنا ودليلي حتى كانت فرساناً قد جلبتا إلينا في الساعة الخامسة من يوم الخميس العشرين من تموز وإذ ذاك رحت أستأذن من رفاقي في السفر. كان الرئيس ريد قد استحال إلى ظل إنسان بسبب المرض الذي ألم به ولشدة حرارة الطقس.

لقد كان رفيقي في عدة جولات ولم أستطع أن أحبس دموعي من أن تتساقط حين رحت أستأذنه في السفر ولم يعد لي سوى أمل ضئيل جداً في أن أراه ثانية.

امتطينا فرسينا وسرنا حوالي ميل في السوق حيث كان التجار ينتظرونني وهم يعلمون بسفري وفي أيديهم رسائل يبعثون بها إلى المدن الأخرى وقد تسلم دليلي تلك الرسائل وأنا متأكد أن عددها يزيد على مائتي رسالة ذلك لأن تلك كانت هي الطريقة الوحيدة التي تنقل بها الرسائل من مدينة إلى أخرى ولذلك كان التتر والتجار على اتفاق حسن دوماً

وكان مكتب التتر، وهو يتمتع بثقة عظمى، مصدر أرباح كبيرة لهم. فهم بالإضافة إلى أجورهم يتسلمون من التجار هدايا كثيرة. وحمل هذه الرسائل لا يكلفهم شيئاً ولا يلحق أي ضرر بهم اطلاقاً ذلك لأنه ما أن يصل التتري إلى بلد شهير حتى يذهب التجار مباشرة إلى رباط المسافرين لاستلام رسائلهم من هناك.

على مقربة من الباب الغربي لبغداد شاهدنا قافلة متهيأة للسفر وهي تتألف من عدة مئات من الإبل المحملة بالسلع وما أن ابتعدنا عن أبواب المدينة حتى بدأنا بالجري خبباً حيث كان الجزء الأول من الطريق الذي سرنا فيه صحراء قاحلة لا أثر للزراعة فيها وما أن قطعنا حوالي أربعة أميال حتى زودنا خادم الدليل بثلاثة خيول إضافية ركب هو واحداً منها وحمل عليه ملابسي الأوروبية وبعض لوازم الدليل وظرفين من الجلد مليئين ماء أما الجواد الثاني فلم يكن يحمل سوى طرحته ولجامه وقد جلب كاحتياطي في حالة وقوع أي حادث للخيول الأخرى أما الثالث فكان يحمل بالتين من السلع وذلك بخلاف الاتفاق الحاصل بيني وبين الدليل.

لقد حرمت نفسي من الكثير من الضروريات التي قد لا أتعب بشأنها وها أنني أجد دليلي قد خدعني ولذلك فكرت في العودة إلى بغداد ومقاضاته لخرقه الاتفاق وأفضيت إليه

بمسلكه هذا وهددته بالعودة فاضطرب لذلك أشد الاضطراب لأن مثل هذه الخطوة سوف تقضي عليه ولذلك أخذ يؤكد لي بأنه لن يحمل هاتين البالتين إلى أبعد من الموصل.

ومع أن هذا المسلك من جانب الدليل قد أساءني كثيراً سيما وقد دفعت إليه مسبقاً خمسمائة قرش إلا أنني ظننت أن من المستحسن أن أتجاوز عنه ولو أنني بقيت مكتئباً عدة أيام. ولقد وعد التتري فيما بعد أن يسارع في قطع الطريق جهد المستطاع.

على بعد تسعة أميال من بغداد بلغنا ضفاف أحد فروع دجلة كان الطريق هنا وعراً جداً مليئاً بالأحراش وغادرنا النهر وفي الساعة العاشرة مررنا بمدينة «ينكجة»[1].

كان في ظاهر المدينة عدد من قطعان الأغنام يراقبها الرعاة خوفاً من بنات آوى التي تكثر هناك وتملأ الجو بعوائها. واجتزنا أحد السهول غربي مدينة (ينكجة) ومع أن الوقت كان بين العاشرة والحادية عشر ليلاً إلا أنني كنت أشعر بضيق بسبب حرارة الجو ولفح الريح ولقد غطيت فمي وأنفي بكوفية وفعل الدليل نفس ما فعلت إلى أن تجاوزتنا العاصفة ولكنني أخذت أتوجس خطراً فإذا كانت هذه الريح على مثل هذه الشدة ليلاً فأي دمار ستحدثه إذا ما طلعت

(1) هي المعروفة اليوم باسم جديدة الاغوات ـ المترجم.

الشمس وارتفعت في الأفق وغدت الأرض تلتهب من وقدة الحر؟

واصلنا سفرنا بمعدل حوالي خمسة أميال في الساعة حتى إذا دنت الساعة الحادية عشرة وصلنا مدينة تدعى «دوكلة» فنمنا في العراء فوق لحاف ووسائد دون أن نخلع ملابسنا فهذه المدينة وينكجة قبلها من القرى الصغيرة وكل بيت فيها محاط بجدار طين يفصله عن البيت الآخر.

نهضنا في الساعة الرابعة والنصف من صباح يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر تموز وسرعان ما انضم إلينا أحد الأتراك ومعه خادمه وثلاثة خيول. مررنا بعدة قرى وشاهدنا حقولاً جميلة من القمح كما شاهدنا مناظر خلابة جداً. هناك قنوات صغيرة تنصب من قناة تزود المنطقة بالمياه وتجعل التربة غنية جداً. والجسور المقامة فوق هذه القنوات ضيقة وفي بعض الأحيان يكون من الخطر على الخيول أن تعبر عليها لأن هذه الجسور ليست سوى بضعة أعواد ملقاة فوق القناة وقد غطيت بالطين.

وأراد التركي أن يظهر مهارته فعبر أحد هذه الجسور باندفاع فما كان من جواده إلا أن زلت قدمه فكبا وألقى براكبه على الأرض مسافة بعيدة.

استأنفنا سفرنا بمعدل أربعة أميال في الساعة حتى

الساعة السادسة والنصف حين وصلنا مربطاً صغيراً في قرية صغيرة تدعى «هوب»[1].

تناولت فطوري هنا وكان مؤلفاً من بيض ولبن ثم رقدت لأنام في ظلال بضع أشجار على جانب القناة كان يمر بالقرية جدول ماء بارد صاف وكانت السلاحف تشاهد بكثرة في هذا الجدول.

استأنفنا سفرنا ثانية في الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر ورحنا نضرب في ريف صحراوي مكشوف حتى الساعة السابقة حين بلغنا مدينة صغيرة محاطة بسور طين تدعى «ماسباس»[2] على مقربة من ضفاف نهر ديالى. وجدنا في هذه المنطقة بقايا خنادق عسكرية كما شاهدنا عدداً من الخنازير المتوحشة بعضها كبير الحجم جداً وقد خرجت هذه الخنازير تبحث عن طعام لها عند غروب الشمس واقترب منا أحدها وكان في حجم غير اعتيادي ولم يظهر عليه أي فزع لرؤيتنا. امتطيت جوادي وقفزت نحوه وسيفي في يدي وأنا أتوقع أن يفر من أمامي ولكنني سرعان ما اكتشفت أنني كنت منخدعاً لأنني ما أن دنوت منه حتى أخذ وضع الدفاع وأظهر جانباً واحداً من جسمه ثم دفع برأسه نحوي. رأيت أن من

(1) أعتقد أنها قرية (هبهب) إحدى قرى قضاء الخالص ـ المترجم.

(2) لم أجد لها أثراً على الخارطة الحالية للعراق ـ المترجم.

الحكمة أن أتراجع لأنني نكرت إن هو هاجمني فسيمزقني أنا وجوادي في الحال. فأنا وإن كنت أحمل بندقية وسيفاً إلا أنني لا أتصور أن باستطاعتي أن أخيف مثل هذا الوحش الهائل.

كنا نسير الآن بمعدل خمسة أميال في الساعة الواحدة ولقد عبرنا نهر ديالى فوق جسر حجري يقوم على عمودين حجريين في إحدى نهايتيه وفي الساعة التاسعة والنصف بلغنا قرية (جبقان) حيث أمضينا فيها ليلتنا على الأرض العراء وفي الهواء الطلق.

وفي الساعة الواحدة والنصف من صباح يوم السبت الثاني والعشرين من تموز وإذ كنا نمتطي جيادنا شاهدنا جماعة من العرب الممتطين الخيول يدخلون القرية وبعد أن واصلنا سفرنا بمعدل أربعة أميال في الساعة وعند حلول الساعة الرابعة اجتزنا نهر ديالى ثانية فوق قنطرة حجرية عند قرية تدعى (ديال عباس)[1].

وقبل أن يطلع النهار التقينا بعدة جماعات من الأعراب يمتطون الخيول وهم يسيرون ما بين جبقان وهذا المكان غير أنهم لم يتحرشوا بنا» ولم نكن نتوقف لنتحدث إليهم إلا نادراً حيث نلقي إليهم بالتحية حين نمر بهم ولقد أقصرت طعامي

---

(1) يقصد بها دلي عباس الحالية ـ المترجم.

هنا على الخبز واللبن الجديد الذي وجدت فيه فطوراً مريحاً واستأنفنا حركتنا في الساعة الرابعة والنصف فاستدرنا نحو الشرق ومررنا بريف كثرت مزارعه على ضفاف نهر ديالى حتى وصلنا مدينة (ادناك) في الساعة السادسة.

تقع هذه المدينة في سفح سلسلة جبال تمتد نحو الشرق والغرب[1] وتروي أرضها إرواء جيداً من بعض النهيرات التي تنحدر مياهها من الجبال ومع أن الحجارة متوفرة في هذا المكان إلا أن جميع الدور في المدينة مشيدة باللبن وهي من طابق واحد عال. وتكثر اللقالق بوفرة جداً في هذه المدينة ويندر رؤية دار واحدة لا توجد عدة أعشاش للقالق فيها وهذه اللقالق أليفة جداً ولا يتعرض لها السكان بأذى قط وحين يقع حادث يزعج هذه الطيور تراها ترسل طقطقات قوية من مناقيرها الطويلة وسرعان ما تجيبها بمثلها بقية اللقالق في كل أنحاء المدينة فتحدث فيها جلبة ظاهرة تستمر أحياناً عدة دقائق.

غادرنا «ادناك» بعد أن تزودنا بخيول جديدة في الساعة الرابعة والنصف وصعدنا الجبال في ممرات ضيقة كانت

(1) سلسلة جبال حمرين التي تمتد من بدره على الحدود الإيرانية حتى نهر دجلة في منطقة «الفتحة» على بعد خمسة عشر ميلاً شمالي ناحية بيجي ثم تستمر على الجانب الغربي لدجلة حتى تصل سنجار ويسمى هذا الجزء منها باسم جبل مكحول ـ المترجم.

بعضها ظاهرة في الصخور الصلدة وهي لا تتسع إلا لمرور حصان واحد في وقت واحد. شاهدنا على قمة أحد هذه الجبال جماعة من العرب قد خيمت هناك وقد استوفوا من دليلي بضعة قروش والواقع أن الذين مررنا بهم كان عددهم ستة أنفار ولكنهم جميعاً مسلحون وقد لاحظت أنهم كانوا في وضع استعداد لإطلاق النار فيما إذا رفض دليلي أن ينفذ مطاليبهم.

إن المرء ليحتاج إلى وقت غير قصير لكي يتهيأ لإطلاق النار وذلك بأن يعد مقدحة البندقية حين يباشر بإشعال النار وهذه الأسلحة صالحة جداً للعمل ولكنها مع ذلك لا يمكن الاعتماد عليها دواماً فهي تتألف في الدرجة الأولى من سبطانات بنادق وأن الأعراب ليحتاجون إلى نحو ربع ساعة من الزمن لإطلاق الرصاص منها.

بعد أن قطعنا تلك الجبال انحدرنا إلى واد كثيف واسع يجري فيه نهر كبير من الغرب إلى الشرق يطلق عليه السكان المحليون اسم «شط النارين»[1].

ولقد شاهدنا عدداً من الأعراب مع مواشيهم على ضفة النهر الذي عبرناه عند المغيب ومع أن مياه النهر وفيرة

---

(1) نهر نارين يكون موازياً لنهر ديالى ويقع بينها وبين نهر العظيم ويسمى الآن نهر الخالص وينقسم إلى جدولين صغيرين ـ المترجم.

وسلساله صاف لطيف إلا أنه لم يبن فوقه جسر يعبر الناس عليه ولاحظنا على مقربة من ضفة النهر عدداً من الحيوانات الغريبة يوصف الواحد منها بأنه «جربوع»[1] وهو يحفر له وجاراً في الأرض مثلما تفعل الأرانب ذلك. ويبدو أنه داجن ويقفز بسرعة جداً على ساقيه الخلفيتين. أما ذنبه فهو طويل كثيراً بالنسبة إلى بقية جسمه وله في مؤخرته ذؤابة بيضاء كبيرة. وحين يقع على الأرض يكون شديد الشبه جداً بالفأر ولكنه أكبر منه حجماً وأخف لوناً.

واصلنا رحلتنا وكنا نقطع ثلاثة أميال في الساعة الواحدة. وفي الساعة العاشرة بلغنا مدينة تدعى «قره تبه»[2] وهنا صرف دليلي الخادم الذي جاء به من بغداد بعد أن ضربه ضرباً مبرحاً بسوط الحصان وفي الساعة الحادية عشرة استأنفنا السفر على خيول جديدة وكان التركي وخادمه ما يزالان مصاحبين لنا في هذه الرحلة.

بعد أن غادرنا قره تبة أصبح الطريق وعراً جداً وجابهنا في بعض الأحيان صعوبات في الهبوط ومع ذلك كنا نخب السير في معظم الطريق.

والمعتاد أن يقود أحد الخدم حصاناً أو حصانين وهذه

(1) هو اليربوع حيوان بري أشبه بالخلد أو الأرنب ـ المترجم.

(2) ناحية قره تبه التابعة إلى قضاء كفري في محافظة كركوك ـ المترجم.

يضر بها التتري أو الخدم الآخرون بالسياط واقترب أحد الخدم ليضرب حصاني بالسوط ولما كنت ممتطياً حصاني بشكل جيد وجدت أن من الظلم أن يقدم شخص آخر على إيذاء ذلك الحيوان وحين أنزل أحد الخدم سوطه على حصاني استدرت نحوه وضربته بسوطي وقد كان هذا العمل مني غلطة كبيرة ولكن كان لها تأثيرها المطلوب لأن الخدم لم يعاودو إلى ضرب حصاني ثانية.

كنا نسير عدواً وقد مررنا بكثير من مضارب الأعراب الذين كانوا قد عسكروا هناك للحصول على النقود من المسافرين. كان الليل دامس الظلام وكان الطريق وعراً ولم ينج حصان واحد من الكبوات خلاله.

وفي الساعة الثانية والنصف ليلاً وصلنا «كوبري»[1] بعد أن عبرنا نهر «نارين» على جسر حجري.

استأنفنا السفر في الساعة الرابعة صباحاً على خيول جديدة ومررنا بأرض قاحلة جرداء لم نر فيها أثراً لمخلوق وواصلنا السير بامتداد منحدرات سلسلة التلال القائمة على يميننا والممتدة نحو الشرق والغرب ومع أننا كنا نعدو طيلة الطريق إلا أنه لم يقع أي حادث لنا لأن الطريق كان جيداً

(1) أعتقد أن هذا المكان سمي باسم القنطرة الحجرية الواقعة على نهر نارين إذ أن الأتراك يطلقون على الجسر أو القنطرة اسم (كوبري) ـ المترجم.

بصفة عامة ولقد أنهك التعب بعض خيولنا فاضطررنا إلى أن نخلفها وراءنا ونمتطي الخيول الاحتياطية التي اصطحبناها معنا وفي الساعة السادسة والنصف وصلنا إلى «طوزخرماتو» فنزلنا للاستراحة فيها.

تقع مدينة طوزخرماتو إلى الشمال عند أقدام سلسلة من التلال وهي تروي جيداً بعدد من الجداول الرائقة الماء التي تنساب من تلك التلال وتسيطر على واد فسيح يمتد إلى الجنوب تكتنفه الأعشاب الوفيرة خلال فصل الشتاء ويمكن الحكم عليها من بقايا الجذور التي ما تزال ظاهرة على وجه الأرض وتكون الشمس جد قوية في مثل هذا الفصل إلى درجة أن شدتها تؤدي إلى تلف كل المزروعات عدا تلك التي تنبت على مقربة من النهيرات التي تنحدر مياهها من الجبال حيث كنا نشاهد أعداداً كبيرة من قطعان الأغنام والماشية.

والمعتاد أن يسوق الرعاة هذه القطعان عند المساء عائدين بها إلى المدينة مخافة التعرض للحيوانات المفترسة ومع أننا تطلعنا في هذا الوادي إلى مسافة خمسة عشر أو عشرين ميلاً إلا أنني لم أر أثراً للسكان فيه.

كان طعامنا في «النزل»[1] مقبولاً وكان الناس فيه جد

---

(1) سماه المؤلف باسمه التركي (قوناق) وهو المكان الذي تربط فيه الخيول للاستراحة أثناء السفر ويتألف على شاكلة النزل أو الخان أو الرباط ـ المترجم.

لطيفين. والواقع أنه إذا ما حدث أن أهمل أحد من خدم المربط أو أصحابه واجبهم فإن دليلي لن يتردد في أن يضرب ذلك المهمل بسوطه.

كان لحم الضأن عندهم لذيذاً جداً وكذلك كان لحم الدجاج أيضاً. وكان خبزهم في شكل أرغفة رقيقة وهو جيد مستساغ ولكن طعامي هنا كان يتألف بالدرجة الأولى من الخبز واللبن وكانت خرافهم جيدة هي الأخرى ولكنهم كانوا يقدمون مأكولاتهم أمام الأجنبي بوفرة ظاهرة ويفرطون في تناول الشحوم.

غادرنا طوزخرماتو في الساعة الرابعة بعد الظهر ورحنا نعدو طيلة الطريق في ريف قاحل حتى وصلنا مدينة تدعى «طاووق»[1] في الساعة السادسة والنصف.

تقع طاووق في الشمال على ذات الوادي الواسع الذي يبلغ عرضه زهاء عشرين ميلاً والذي تقوم على كل من جوانبه سلسلة من الجبال تمتد إلى الشرق وإلى الغرب معاً.

ولقد تحركنا من طاووق في الساعة الثامنة وبعد أن قطعنا زهاء أربعة أميال وصلنا إلى مدينة تدعى «تبللي»[2] تقع في ذات الوادي وتسقى بعدة جداول تنساب من الجبال

---

(1) وتسمى داقوق أحياناً ـ المترجم.

(2) لعلها قرية (البلان) التي تقع في الطريق الممتد من طاووق إلى كركوك ـ المترجم.

القائمة إلى شمالها. ولم نتوقف في مدينة «تبللي» هذه وواصلنا رحلتنا ونحن نقطع أربعة أميال في الساعة الواحدة وقد غدا الطريق وعراً وشاقاً في بعض الأحيان.

في مثل هذه الليالي الحالكة الظلام كنت أعتقد دوماً أن العدو ليلاً في مثل هذه الأراضي الوعرة لا بد وأن يكون أمراً محفوفاً بالخطر ولذلك كنت أمنع دليلي من السير عدواً، أما في ناحية النهار فكنت أسمح له طبعاً بالجري سريعاً حسبما يشاء.

ويعد التتر من أحسن المتدربين على ركوب الخيل وهم يمضون الجزء الأعظم من حياتهم على ظهور الخيل ولكنهم مع ذلك لا يأبهون بهذه الحيوانات إذ يعدون بها فوق التلال وأسافلها دون ما تمييز، ويستمرون في عدوهم هذا إلى أن تسقط الحيوانات من تحتهم أحياناً بسبب شدة إنهاكها ومع ذلك فإن هذه الخيول أشد تحملاً للمشقة والتعب من جميع الخيول المعروفة في أوروبا. ويبدو أن راكبي الخيول هؤلاء لا يخشون السقوط من على ظهورها وهو أمر يحدث غالباً حين الهبوط بسرعة من التلال ذلك لأن القبعات التي يلبسونها تصون رؤوسهم من الكدمات وتقي الأحزمة أجسادهم وتحافظ الأحذية القوية على الساقين إذ ينفصل القدم بسهولة عن ركاب السرج، وهو عبارة عن صفيحة من حديد تمتد على طول القدم.

❁ ❁ ❁

واصلنا سيرنا باعتدال حتى الساعة الثانية من يوم

الاثنين الرابع والعشرين من تموز حين وصلنا مدينة كركوك التي تقع في ذات الوادي الذي أتينا على ذكره قبلاً. ولقد استأنفنا الرحلة على خيول جديدة في الساعة الثالثة وشرعنا نصعد سلسلة الجبال القائمة على يميننا. ولقد وجدنا على مقربة من القمة عدة حفر للنفط[1] وهذه الحفر قد نقبت في الصخور ويبلغ عمق الواحدة منها ثلاثة أقدام والنفط متوفر فيها بشكل سائل كثيف وله رائحة قوية أشبه برائحة القار الذي نستخرجه من الفحم الحجري وقد شاهدنا فوق هذه الحفر عدة صخور ملحية.

وجدنا أنفسنا بعد هذا نجتاز تلالاً أشبه بالدريس ويبدو أنها قد تكونت بفعل المياه ذلك لأن الأصداف والحصى تغطيها بالشكل الذي نعهده في ضفاف الأنهار وفي قمم هذه السلسلة من الجبال تقوم تلال مستديرة كبيرة جداً ولكنها تأخذ بالانحدار مسافة ميلين حيث هبطنا منها إلى واد فسيح.

كان هذا الوادي يمثل في نظرنا أعظم نجدة لنا وذلك

(1) إن هذه الحفر التي شاهدها المؤلف كانت تقع في ذات المكان الذي يعرف باسم «بابا كركر» والذي باشرت شركة النفط العراقية «وكانت تسمى قبلاً شركة النفط التركية» بالتنقيب فيه فعثرت على أول بئر للنفط هناك سنة 1927 وتقوم منشآت شركة النفط العراقية في كركوك حالياً في موقع بابا كركر ذاته والذي توجد فيه النار الأزلية التي لا تخمد ليل نهار منذ أجيال عديدة وقد كان النفط ظاهراً على سطح الأرض في هذه المنطقة منذ القدم ـ المترجم.

لصعوبة السفر بين هذه التلال إذ كنا نضطر إلى الالتواء والتعرج في طريقنا كما كانت هذه التلال في بعض الأماكن شديدة الانحدار بحيث يصعب على خيولنا أن تثبت أقدامها فوقها وكانت هذه التلال، وهي تبدو كأكوام من العشب الجاف، ذات منظر فريد وتمتد من الشرق إلى الغرب على مد البصر.

وتبين هذه السلسلة من الجبال وكأنها تؤلف حاجزاً طبيعياً. فعلى قمتها لا تزال بقايا سور قوي شيد بالحجارة وسلح بالقار وما أن هبطنا إلى الوادي وقطعنا معظم الطريق عدواً حتى اندفعنا نحو «التون كوبرى»[1] التي وصلناها في الساعة السابعة والنصف والتون كوبري هذه مدينة كبيرة آهلة بالسكان وقد أنشئت فوق جزيرة الفها نهر «التون» الذي ينقسم ذاته على مقربة من المدينة ثم يعود فيتحد جنوبها في حين تشمل المدينة مساحة الجزيرة كلها.

تقوم هنا في الوقت الحاضر حامية كبيرة من الجنود الأتراك وتعد المدينة من الحصون المنيعة التي يصعب افتتاحها والمدفعية غير معروفة فيها.

دخلنا المدينة بعد أن عبرنا النهر فوق جسر حجري ذي

---

(1) المدينة المشهورة الواقعة في الطريق بين كركوك وأربيل. والتون كوبري كلمة تركية تعني (قنطرة الذهب) وهي تقع على نهر الزاب الصغير في الجزء الذي يطلق عليه اسم جدول التون ـ المترجم.

طابق واحد وهو أعلى جسر شاهدته في حياتي. والمرور فوق الجسر غير لائق تماماً لأنه منحدر من كلا الجانبين انحداراً شديداً ولأن الجسر - وهو أشبه بالجسور الغوطية - يجري إلى نقطة مرتفعة في الوسط وسطح الجسر رديء هو الآخر ولقد سقط جوادي فيه عدة سقطات قبل أن أمتطيه وتعتبر هذه المدينة في الوقت الحاضر عاصمة كردستان التركية[1] ويقيم الباشا فيها.

غادرنا التون كوبري في الساعة الخامسة بعد الظهر وحين مغادرتها عبرنا فرعاً ثانياً من فروع النهر فوق جسر آخر يقوم على طاقين ويفيض هذا النهر بالمياه الغزيرة ويصب في نهر دجلة على بعد بضعة أميال في أدنى المدينة[2].

وما أن غادرنا التون كبري حتى دخلنا حالاً في ريف جميل جداً تكتنفه المزارع الواسعة وتعمره حقول القمح والخضار وكان القمح على وشك أن يتم حصاده. وبعد أن

---

(1) يقصد المؤلف بكردستان التركية الأجزاء التي استوطنها التركمان من كردستان وهي المنطقة الممتدة من أربيل إلى التون كوبري وكركوك حتى طوز خرماتو في الجنوب وذلك بفعل العوائل التركية التي جاءت من تركيا وأسكنت في هذه المناطق واستقرت منذ عهد سليمان القانوني - المترجم.

(2) المعروف أن نهر «التون» هذا هو فرع من فروع نهر الزاب الصغير وأنه لا يصب نفسه في نهر دجلة وإنما يجري ليختلط بالزاب على مقربة من التون ذاتها وأن نهر الزاب الصغير نفسه هو الذي يصب في دجلة عند الفتحة التي تقع في شمال ناحية بيجي على بعد 215 كيلومتر شمالي بغداد - المترجم.

قطعنا زهاء ستة أميال ألفينا أنفسنا ثانية بين تلال فيها مزارع صغيرة ولكننا لم نر كثيراً من الخصب إلى أن وصلنا (اربيل)[1] التي تبعد زهاء اثنين وثلاثين ميلاً عن التون كوبري.

والظاهر أن أربيل كانت لها في السابق أهميتها العظمى وذلك لوجود بقايا قلعة حصينة قديمة فيها تقع على قمة تل مستحدث عند الجهة الغربية من المدينة الحالية وتوجد في ظاهر المدينة عدة حفر للنفط[2].

وقد قيل أنه على مقربة من أربيل القديمة تحارب الاسكندر مع داريوس[3] وأن الريف المحيط بها إلى مسافة بعيدة كان مسرحاً لتلك المعركة الشهيرة.

(1) سماها المؤلف باسم «اروبل» وهو اسمها القديم وقد حرف الأكراد هذا الاسم بمرور الزمن فأصبحوا يسمونها في الوقت الحاضر باسم «هاولير» ولكن اسمها الذي اشتهرت به في التأريخ منذ عهد الأشوريين هو «اربيلا» ـ المترجم.

(2) لم يؤد أحد حتى الآن وجود أثر للنفط في أربيل وكما نعلم لم تجر أية تحريات عن هذه المادة في تلك المنطقة لا قديماً ولا حديثاً وأن خبراء النفط سواء الذين رافقوا الحملة العسكرية الإنكليزية على العراق في الحرب العالمية الأولى أو الذين عملوا مع شركات النفط الإنكليزية العراقية لم يذكروا عن وجود النفط في أربيل شيئاً.

(3) المقصود هنا هو الاسكندر المقدوني الذي تحارب مع داريوس ملك فارس حوالي سنة 331 قبل الميلاد وقد اندحر داريوس في هذه المعركة وبذلك انحدر الاسكندري من هناك إلى بابل فاستولى عليها وكان عمره لا يزيد عن خمس =

لم نغير خيولنا في أربيل وقد واصلنا سفرنا أربعة أميال أخرى وفي الساعة الحادية عشرة وصلنا إلى مدينة تدعى «عين كاوة» وكان الجزء الأعظم من الطريق الذي سرنا فيه جيداً.

في الساعة الواحدة والنصف من صباح يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شهر تموز غادرنا عين كاوة وجرينا بسرعة فائقة حتى بلغنا عند الساعة الخامسة مدينة صغيرة تدعى (كلك)[1] تقع على ضفاف نهر الزاب[2] وهنا وجدنا قافلة كانت تنتظر أن تعبر النهر وكان عبور النهر يستلزم وقتاً غير قصير بالنظر لعدم وجود زوارق هناك وأخذت الخيول والإبل تعبر النهر سباحة كل ثلاثة أو أربعة منها مرة واحدة يقودها رجل يطوف على ظرف من جلد الغنم مملوء بالهواء يضعه تحت صدره. أما البضاعة والمسافرون فقد كانوا ينقلون على معبر مؤلف من أغصان الأشجار مثبتة فوق عدد من الظروف المنتفخة[3].

= وعشرين سنة وبعد أن افتتح الاسكندر إيران والأفغان والهند وأصبح سيد العالم توفي ببابل سنة ٣٢٣ ق.م. وعمره لم يزد عن ٣٣ سنة ـ المترجم.

(1) هي المعروفة اليوم باسم ناحية أسكي كلك وتقع في الطريق ما بين الموصل وأربيل وقد أنشىء عندها فوق نهر الزاب جسر حديدي حسبما نعلم ـ المترجم.

(2) سمى المؤلف هذا النهر باسم (زارب) وهو تصحيف واضح للكلمة الأصلية (زاب) والمقصود به هنا نهر الزاب الكبير الذي يقع عليه سد بخمة المقترح والذي يصب في دجلة مقابل قرية الشورة ـ المترجم.

(3) يسمي العوام هذا المعبر في أطراف دجلة باسم «العبرة» ويسميه أهل تكريت

ولقد عبرنا النهر بهذه الواسطة ولم نتأخر كثيراً ذلك لأن المشرفين على شؤون القافلة ما أن علموا أننا أجانب حتى منحونا الأفضلية في العبور.

والزاب نهر كبير وماؤه رائق تماماً وهو ينساب من الجبال الواقعة إلى الشمال والتي تغطي الثلوج قممها ويبدو الريف المجاور للنهر شديد الخصوبة وهو ينتج كميات وفيرة من القمح الذي يستخدم عدد كبير من الناس في حصاده. ما أن قطعنا نهر الزاب حتى امتطينا خيولنا في الحال وقطعنا حوالي خمسة أميال في أرض خصبة مزروعة وإذ ذاك بلغنا نهراً آخراً شهيراً يدعى «الخازر»[1] ومع أن هذا النهر لم يكن بجسامة نهر الزاب إلا أن عبوره لم يخل من صعاب وذلك بسبب فيضانه من جراء الثلوج الكثيرة التي ذابت على الجبال وانحدرت مياهها إليه.

ولقد رحنا نعدو بسرعة في ريف جميل زهاء ستة أميال وفي الساعة الثامنة وصلنا إلى مدينة «قره قوش»[2].

والموصل ونواحيهما باسم «الكلك» وإذا صنع من أخشاب وحدها يسمونه «الطوف» وقد كان أداة المواصلات الوحيدة بين الموصل وبغداد قبل مد سكة الحديد إلى جانب الطريق البري الذي يقطعه المسافرون إما مشياً على الأقدام أو على ظهور الحمير أو الخيل أو الإبل ـ المترجم.

(1) نهر الخازر أو الخوصر نهر صغير ينساب من الشمال الشرقي ويصب في نهر الزاب الأعلى على مقربة من «الكوير» ـ المترجم.

(2) ناحية قره قوش وتسمى اليوم باسم الحمدانية ـ المترجم.

لم تكن الخيول مهيأة هنا وكان علينا أن ننتظر حوالي ساعة كاملة ومع أنني كنت جداً مشوق لأن أبلغ الموصل هذا الصباح إلا أنني ظننت أن الأمر يقتضي يوماً آخر ولقد جلبت لنا الخيول بعد الساعة التاسعة بقليل غير أن حرارة الشمس غدت الآن شديدة جداً، وشرع الناس يستريحون في الظلال كما انحدر البعض منهم إلى السراديب اتقاءاً من الحر.

يعد هذا الجزء من البلد أشد خطراً في مثل هذا الفصل بسبب رياح «السميل» الشهيرة التي بلغت الآن أعلى درجات شدتها والتي كانت تفتك بالكثير من الناس فيموتون بسببها أعظم من أي وباء آخر. تهيأنا أنا ودليلي للركوب بشكل جيد وغادرنا المكان بسرعة كبيرة وواصلنا قطع ذلك الجزء من الطريق الذي يبلغ حوالي عشرين ميلاً ذلك لأن رياح السميل بدأت تهب بشدة قبل أن ندرك الموصل ومن المحقق أن قوتها ستزداد سرعة بحيث لم يخامرني أدنى شك بأننا لو تأخرنا ساعة واحدة لتعرضنا لتلك الرياح جميعاً نحن وحيواناتنا ولهلكنا فعلاً.

الفصل السادس

في مدينة الحدباء

وصلنا الموصل في الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً من صباح الخامس والعشرين من شهر تموز وعبرنا نهر دجلة على جسر يقوم فوق زوارق. ومن شدة تعرضي للشمس تصلبت بشرة وجهي ويدي وتمزقت. وما أن وصلت المدينة حتى ذهبت مباشرة إلى أحد الحمامات للاغتسال فيه ولقد وجدته منعشاً لي جداً.

تقع الموصل، التي يقول بعض السكان عنها أنها (نينوى) القديمة[1] على هضبة عند الجهة اليمنى من نهر دجلة. ولست أعرف عما كانت عليه قبلاً ولكنها الآن مدينة كبيرة تضم الكثير من الأبنية الجميلة والعديد من الحمامات

(1) نينوى هي العاصمة الثالثة للدولة الآشورية كمل بناؤها سنة 1080 قبل الميلاد وهي تقع شرقي الموصل على الجانب الأيسر من نهر دجلة وكانت أسوارها تمتد إلى المكان الذي يقوم فيه الآن مسجد النبي يونس وقد اكتشفها المسيو بوتا القنصل الفرنسي في الموصل سنة 1843 ـ المترجم.

والمساجد والجوامع الفاخرة التي أنشئت كلها من الحجارة الصقيلة المنحوتة. والروح المحافظة هنا ليست بمثل الشدة التي تتميز بها المدن الشرقية ذلك لأن النساء من جميع الأصناف لسن محجبات وهن أشبه بنساء البلدان الأوروبية. والمدينة مكتظة بالسكان وتضم أصنافاً من مختلف الأديان ولكن معظم السكان هم من الأكراد الذين يسميهم العرب «كرك»[1].

اصطحبت معي دليلاً ورحت أتجول في أنحاء المدينة. كان السوق فيها واسعاً ومزوداً تزويداً حسناً بالسلع. وكانت أسعار معظم المواد المعروضة للبيع، ما عدا الملابس، معتدلة تماماً. . وقد بدا على السكان أنهم أكثر اهتماماً بالصناعة من أي قوم آخرين رأيتهم مذ غادرت الهند. فهناك عدة مصانع يجري تشغيلها وبعض مصنوعاتها تتفوق على المصنوعات الأوروبية فسروج الخيول وأحزمتها تظهر جد أنيقة بوجه خاص. وهم يصنعون سجاد الحرير ويطرزونه بالأزهار فيظهر أحسن وأمتن من السجاد الذي نصنعه نحن وهم مبرزون في صنع المطرزات الثمينة المدهشة للرجال وللنساء معاً. ولديهم العديد من مصانع النحاس والحديد وهناك كميات كبيرة من مختلف المواد التي تصنع من هذه

---

(1) لا بد أن المؤلف قد أخطأ في هذه التسمية لأننا لم نر أحداً من العرب حتى الآن وفي مختلف بقاع العراق يطلق على الأكراد مثل هذا الاسم ـ المترجم.

المعادن يتم إرسالها عبر نهر دجلة نحو الجنوب حتى البصرة بالإضافة إلى كميات هائلة من النحاس غير المشغول التي يبعث بها من المناطق الجبلية إلى الجنوب.

ومدينة الموصل محاطة بسور قوي عال شيد من الحجارة والأراضي المحصورة داخل السور غير مشغولة بالدور كلها ذلك لأن كثيراً من الأماكن تغطيها الخرائب مما يدل على أن الموصل كانت في وقت ما أكثر سكاناً مما هي عليه في الوقت الحاضر.

وفي مقابل الخان الذي توقفت عنده تماماً تقع محكمة العدل. والمحاكمات هنا قصيرة جداً ذلك لأن المتهم يمثل أمام المحكمة لأقل من خمس دقائق فإن وجد مجرماً اقتيد إلى السجن لينال عقوبته وتفتح محكمة العدل عند شروق الشمس ولكنها لا تستمر أكثر من ساعتين لأنها كما يلاحظ القارىء، اعتادت أن تنجز أعمالها بسرعة فائقة.

التقيت هنا بقس فينيسى[1] يدعى منصور رحت أتحدث معه باللغة اللاتينية التي كان يتحدث بها بطلاقة كان هذا قد تلقى مؤخراً رسائل من اسطنبول تشرح كيف أن الفرنسيين قد غزوا بلده وكيف بدا شديد الاهتمام بهذا الأمر. كان رجلاً رقيقاً لطيفاً جداً وهو أكثر ثقافة من أقرانه القسس. كان

(1) نسبة إلى فينسيا المدينة الإيطالية الشهيرة باسم البندقية ـ المترجم.

يحمل رسالة من البابا وقد وفد إلى الموصل قبل سنتين وثمانية أشهر وهو يعتزم الذهاب إلى الهند حالاً. ولم أجد في المدينة كلها شخصاً واحداً يعرف الفرنسية أو الإنكليزية.

ولقد وجدت هنا أن ليس في استطاعتي السفر في الطريق المعتادة وذلك بسبب الوضع المضطرب في البلاد. فسكان الجزيرة[1] كانوا في ثورة علنية ضد الحكومة التركية وقد قتلوا الباشا واقترفوا الكثير من الجرائم الأخرى. كما قيل أيضاً أنه من الخطر جداً أن أخرج مسافة بضعة أميال عن الموصل من دون حرس قوي يحرسني ونتيجة لهذه المعلومات ظل دليلي ينتظر الإذن من الباشا والذي أمر في الحال بتأليف حرس من ضابط واحد وخمسة عشر فارساً.

في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر تموز أخبرنا أن حرسنا وخدمنا قد أصبحوا على أهبة الاستعداد للسفر.

ولقد امتطينا جيادنا فوجدنا الحرس والخدم ينتظروننا عند الباب الغربي للمدينة. وأصابتني خيبة كبرى إذ وجدت دليلي التتري قد نقض وعده ثانية بشأن نقل البضاعة معه ومع أنني لم أتأخر بسبب تلك البضاعة إلا أنني ظننت أنها تغري

---

(1) المقصود بالجزيرة هنا (جزيرة ابن عمر) الواقعة شمالي الموصل على الضفة اليمنى من نهر دجلة ـ المترجم.

بنا العديد من عصابات قطاع الطرق في تلك البلاد ولكن لما لما يكن لي مناص من ذلك فقد أجبرت على السكوت.

كانت الخيول التي أعدت للجميع جيدة تماماً وكانت هذه ضرورية جداً لأنه كان علينا أن نقطع مائة وخمسين ميلاً قبل أن نستطيع الحصول على خيول جديدة وكان جواد الضابط جواداً عربياً جميلاً أبيض اللون خفيف الحركة بصفة متناهية.

وما أن غادرنا المدينة مباشرة حتى أخذ عدد من الفرسان يتبارزون برماحهم وكانت في نظري من أجمل المبارزات التي شهدتها كان الضابط يرتدي سترة حمراء قرمزية اللون وكان طربوشه يرتفع زهاء قدمين، وكانت لحيته طويلة سوداء وهو في حدود الثلاثين سنة أما الجند فكانوا يرتدون صديريات بيضاء وطرابيش وعمامات حمراء وهم حليقو اللحي عدا الشوارب.

ولقد أرغمنا الوضع المضطرب في البلاد على السير بمحاذاة الضفة اليمنى من نهر دجلة وكنا نسير باعتدال حوالي أربعة أميال في الساعة الواحدة وفي الساعة السابعة بلغنا قرية صغيرة على ضفة النهر استرحنا فيها بعض الوقت وكان الريف الذي مررنا به من الموصل حتى هذه القرية حسن الزراعة ينتج كميات كبيرة من القمح وكنا نرى آثار ذلك طيلة الطريق على جانبي النهر وعلى مسافات ملموسة أحياناً وفي أماكن

أخرى قريبة من الضفاف. وتقع هذه القرية على قمة كهف بارز يرتفع عن النهر حوالي مائة وخمسين ياردة.

استأنفنا حركتنا ثانية في الساعة الثامنة وقد أصبح حراسنا يعدون عشرين فارساً وسرعان ما غدا الطريق وعراً كثير التلال ولكننا بعد أن قطعنا بعض المنحدرات والممرات الضيقة التي لا يسير فيها سوى حصان واحد مرة واحدة، عدنا ثانية إلى ضفاف نهر دجلة. كان الليل مظلماً شديد الحلوكة وكان الطريق رديئاً جداً ذلك لأننا كنا نتقدم بصعوبة بالغة. وقد استدرنا الآن نحو الجنوب فتركنا نهر دجلة على يميننا ثم انضممنا إلى قافلة كبيرة متجهة إلى (ديار بكر)[1]. وتتألف هذه القافلة من حوالي مائتي بعير وثلاثة آلاف حمار وبغل، وألف حصان وكل هذه يقودها أحد الأعراب يعاونه في ذلك عدد ملحوظ من الحراس.

وما أن لحقنا بالقافلة في الساعة الواحدة من صباح يوم الخميس السابع والعشرين من تموز حتى انضم إلينا عدد من التتر الذين كانوا بدورهم يقصدون مدينة (ديار بكر) أيضاً. ومع أنهم كانوا مجهزين لكي يسيروا أسرع من القافلة إلا أنهم كانوا يخشون الاندفاع إلى أمام.

---

(1) كانت تسمى آمد قبل الفتح الإسلامي وهي الآن داخلة في الأراضي التركية. المترجم.

لا توجد أماكن للإقامة ثابتة في هذه الأنحاء ولذلك فقد غدت في الوقت الحاضر مسرحاً لأعمال عصابات قطاع الطرق وحين انضم التتر إلى جماعتنا أصبح عدد خيولنا أربعين جواداً ولقد أخذنا نجري الآن أسرع من القافلة وشرعنا نقطع ستة أميال في الساعة حتى إذا دنت الخامسة توقفنا عند نهر صغير في واد منبسط.

وهنا كانت القافلة قد توقفت هي الأخرى وألفت بحملها ونصبت خيامها. لم يكن صاحبي التتري قد أعد للسفر جميع أسباب الراحة الضرورية ولذلك اضطررت أن أستلقي بملابسي على الأرض العراء ومهما يكن الأمر فقد ظللت راقداً حتى الساعة السابعة حين غدت حرارة الشمس قوية وإذ ذاك دخلت إلى خيمة العربي رب القافلة وتناولت طعام الفطور معه.

يقوم على مقربة من ذلك النهر مرتفع من الأرض يشرف على الوادي السحيق ومن هذا المرتفع اتخذ رب القافلة مرقباً يراقب منه المكان طيلة النهار. وتكثر أمثال هذه المرتفعات في هذه الأنحاء وليس من شك في أنها مصطنعة لأنها تقوم بمفردها على الدوام في أودية منبسطة ولا بد أن يكون إنشاء هذه المرتفعات قد اقتضى الكثير من النفقات والعمل.

خالج رب القافلة شعور بأنها معرضة لهجوم ولذلك شرع يتخذ جميع الإجراءات الضرورية لوقايتها فأعد حوالي

خمسين رجلاً وجعلهم في حالة إنذار واستعداد لامتطاء صهوات جيادهم في أية لحظة، وأخذ يبعث بعدد آخر من الفرسان إلى مسافة ثمانية أو عشرة أميال عن المكان الذي كانت القافلة ترابط فيه وذلك لغرض الاستطلاع.

وعلى مقربة من هذا المكان كان التتري الذي أشرت إليه آنفاً قد لقي حتفه وكان ذلك الحادث ما يزال حياً في أذهان الناس ومهما يكن الأمر فإن مهاجمة هذه القافلة تحتاج إلى قوة ملموسة ذلك لأن جميع من فيها من الرجال كانوا مسلحين بنوع ما من الأسلحة. كان معظم السلاح يتألف من الرماح الطويلة ومع أنها لا تبدو ذات جدوى أمام القوات الأوروبية النظامية إلا أنها تعد ملائمة لصفة القتال السائدة في هذه البلاد في الوقت الحاضر.

كان بعض الناس يستعملون الأقواس والسهام والواقع أنني رأيت أحد التتر مسلحاً بهذا السلاح وكان هذا الرجل متفوقاً في إصابة الأهداف فحين يمتطي صهوة جواده يحمل قوسه وحمالته المرتجفة على كتفه فيصبح قادراً على التصويب بشكل أفضل من حملة الرماح.

كانت الأرض التي نصبنا مضربنا عليها مغطاة بالأعشاب الطويلة الجافة وبأوراق التبغ وكان كلا النوعين من هذه النباتات مغبر اللون وذلك لانعدام الخضرة بينها عدا البقع المحيطة بالمياه.

وكان بعض أفراد القافلة قد شرعوا يوقدون النار في العشب الجاف فتسير في المضرب باتجاه الريح ثم سرعان ما تخمد.

وفي الساعة الخامسة والنصف غادرنا المكان مع تلك القافلة الهائلة التي تطلب استئنافها السير ساعتين كاملتين وإذ ذاك عاد الحرس الذين رافقونا من الموصل.

واصلنا الحركة مع القافلة التي رافقناها حتى الساعة الثالثة من صباح يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر تموز وكان سيرنا بمعدل ثلاثة أميال في الساعة الواحدة وإذ ذاك شرع معظم رجال القافلة ينصبون خيامهم بجانب أحد النهيرات.

ولما كان عددنا بالتتر الذين يقصدون مدينة ديار بكر وبالأعراب الخمسة المرافقين لنا قد أصبح عشرين فارساً فقد تركنا القافلة وسرنا قدماً وبمعدل ستة أميال في الساعة الواحدة في صحراء مكشوفة لم نجد فيها أي أثر للسكان أو الزراعة. وعند شروق الشمس بلغنا بعض النهيرات التي تغطي الحشائش والشجيرات ضفافها بشكل كثيف.

ولقد وجدنا هناك بعض الخنازير الوحشية التي اندفعت هاربة إلى السهل المجاور حين اقتربنا من أماكنها ولقد رأيت قطيعاً من هذه الخنازير يعد عشرين خنزيراً تندفع نحو النهير

وكأنها متجهة نحونا دون أن تصدها الجلبة التي كنا نحدثها.

وسارعت إلى جوادي فامتطيته ورحت أتعقبها بمنتهى السرعة وقد اصطحبت معي اثنين من الأعراب مجهزين بالرماح وأدركناها عند النهير حين اندفع القطيع كله نحونا واتجه راكضاً إلى السهل عدا واحد منها حاول أن يخفي نفسه بين الأشجار وسرعان ما عثر عليه الأعراب وهم يتحسسون المكان برماحهم وحاول الحيوان أن يجري نحو السهل وراء بقية القطيع ولكننا تعقبناه عن قرب وأعدناه.

ولقد وجدت العربيين أكثر إصابة للهدف مني ذلك لأنهما أصاباه برماحهما قبل أن أوجه له ضربة من صارمي وبعد أن أصيب الخنزير بجرحين أو ثلاثة غدا عنيفاً شرساً جداً وشرع يهاجم خيولنا ونحن نحاول أن نصده عنها واستفاد العربيان من طول رمحيهما في حين لم أستطع أنا أن أوجه إليه ضربة إلا على مقربة منه ولقد استطاع أن يصيب حصاني بأنيابه وإذ ذاك أوشكت على السقوط.

ومثل هذا الحادث يعد قاتلاً لأنني لو وقعت على الأرض لقتلني الخنزير حالاً. وكذلك أصاب أحد جوادي الأعرابيين ولكنه لم يصبهما بأذى وأسرعت الخيول في عدوها وراح الخنزير يخرج الزبد من فمه ويختطف الرماح أو أي شيء يلقي به إليه.

حينما كان قوياً كنا نخشى أن نطبق عليه معاً ولم نجرحه إلا حين اتجه راكضاً نحونا أما الآن فقد دب الضعف فيه لكثرة ما نزف من دماء وإذ ذاك أطبقنا عليه وأشبعناه ضرباً بالرماح والصارم إلى أن خر صريعاً ولقد لاحظت أنه لم يجأر أبداً حين كنا نطارده أو عندما قتلناه وكان من حجم متوسط ولونه أحمر غامق.

أبت بقية الجماعة أن تشاركنا فيما فعلنا وإنما بقي الجميع يراقبوننا وقد كان هذا الحادث في نظري من أعظم الحوادث التي لم أشهد مثلها قبلاً فالواقع أنني شاهدت العديد من الخنازير المتوحشة ورغبت في مهاجمتها ولكنني كنت أخشى أن أفعل ذلك لوحدي أما الآن فقد اقتنعت تماماً كيف تنطوي مثل هذه المحاولة على الحماقة وعدم التبصر لقد كانت الخنازير تدافع عن نفسها مدة أطول مما كنت أتصوره وعندما تثار لا أجد حيواناً آخر يماثلها في شراستها. تركنا الخنزير جثة هامدة على الأرض وسرعان ما شاهدنا ذئباً كبيراً أغبر.

❀ ❀ ❀

واصلنا سيرنا حتى الساعة الثامنة والنصف وبمعدل ستة أميال في الساعة الواحدة، وإذ ذاك بلغنا أحد التلال المصطنعة التي تقوم في سهل فسيح يجري فيه نهر رائق الماء عذبه.

لم نر مكاناً ثابتاً للإقامة في ذلك السهل وكانت الخيام تنصب بشكل وقتي لغرض إراحة المسافرين الذين اضطروا إلى أن يطرقوا هذه الطريق غير المطروقة قبلاً بسبب الوضع المضطرب الذي كانت تجتازه البلاد آنذاك.

رقدنا في خيمة نصبت على جانب النهر وكنت محظوظاً إذ أصبت قليلاً من الخبز واللبن واستحميت في النهر فوجدته منعشاً جداً، كما شعرت بالراحة لأن رأسي كان حليقاً ذلك لأنني كنت أغسل رأسي بالماء البارد حيثما تيسر لي ذلك.

امتطينا خيولنا ثانية في الساعة الخامسة بعد الظهر وبعد أن قطعنا زهاء عشرة أميال باتجاه الغرب في ريف منبسط بدا لنا أنه كان مزروعاً ومأهولاً بالسكان في يوم ما وأنه غدا الآن قفراً يهابا، عدنا إلى ذات الجداول المائية الجميلة.

ولقد شاهدنا على ضفافها خرائب مدينة يظهر أنها كانت في وقت ما واسعة جداً وهي على شكل هلال لقد وجدت هنا أحجاراً منحوتة كبيرة ذات أبعاد مختلفة كما عثرت بين الخرائب على تابوت ولكنني لم أعثر على أية كتابة فوق تلك الأحجار أو على ذلك التابوت ولم نر أي أثر لمخلوق في هذا المكان غير المطروق عدا الخنازير البرية والذئاب وبعض النسور وكان البعض منها أليفاً أما الماء فكان مليئاً بالأسماك.

واصلنا سيرنا نحو الغرب حتى الساعة التاسعة حين عبرنا أحد الجداول فاستدرنا نحو الشمال وفي هذا الوقت ضل أحد جماعتنا طريقه وما أن أطلق إطلاقة من بندقيته حتى استطعنا العثور عليه. كان الظلام حالكاً ولم يكن هنالك طريق أو مسلك نستطيع السير فيه وكنا نلاقي صعوبة كبرى في ذلك أحياناً.

وعند منتصف الليل وصلنا إلى مكان صغير يدعى (تيس) يضم بضعة منازل قائمة على أحد تلك التلال الاصطناعية التي أشرت إليها قبلاً. وقد استرحنا فيها زهاء الساعة وكنت منهوك القوى جداً من شدة الجوع والتعب.

غادرنا (تيس) في الساعة الثانية عشرة والنصف دون أن نظفر بالراحة وما أن تركنا ذلك المكان في الحال حتى ظللنا الطريق ودخلنا أراضي كثيرة المستنقعات ثم اجتزنا عدة جداول للماء تنساب من سلسلة جبال نحو الشمال وتحركنا عدواً حتى بلغنا مدينة «نصيبين» في الساعة الثالثة من يوم الأحد التاسع والعشرين من تموز سنة 1797.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



٢ ـ الباب الوسطاني (وهو باب الظفرية قديما) ولم يبق من ابواب سور بغداد الاربعة الان غيره وقد قامت مديرية الآثار العامة بصيانته وترميمه واتخذته متحفا للسلاح وهو من ابنية المئة السادسة للهجرة.



٣ – باب الطلسم (وهو باب الحلبة قديما) . جدده الناصر لدين الله العباسي بناء في سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) . ولما دخل السلطان مراد بغداد سنة ١٦٣٨ سد مدخله بجدار وبقي الباب قائما الى ان نسفه الاتراك سنة ١٩١٧ عند انسحابهم من بغداد في أواخر الحرب العالمية الاولى وكانوا قد اتخذوا منه مخزنا للعتاد الحربي حينذاك .



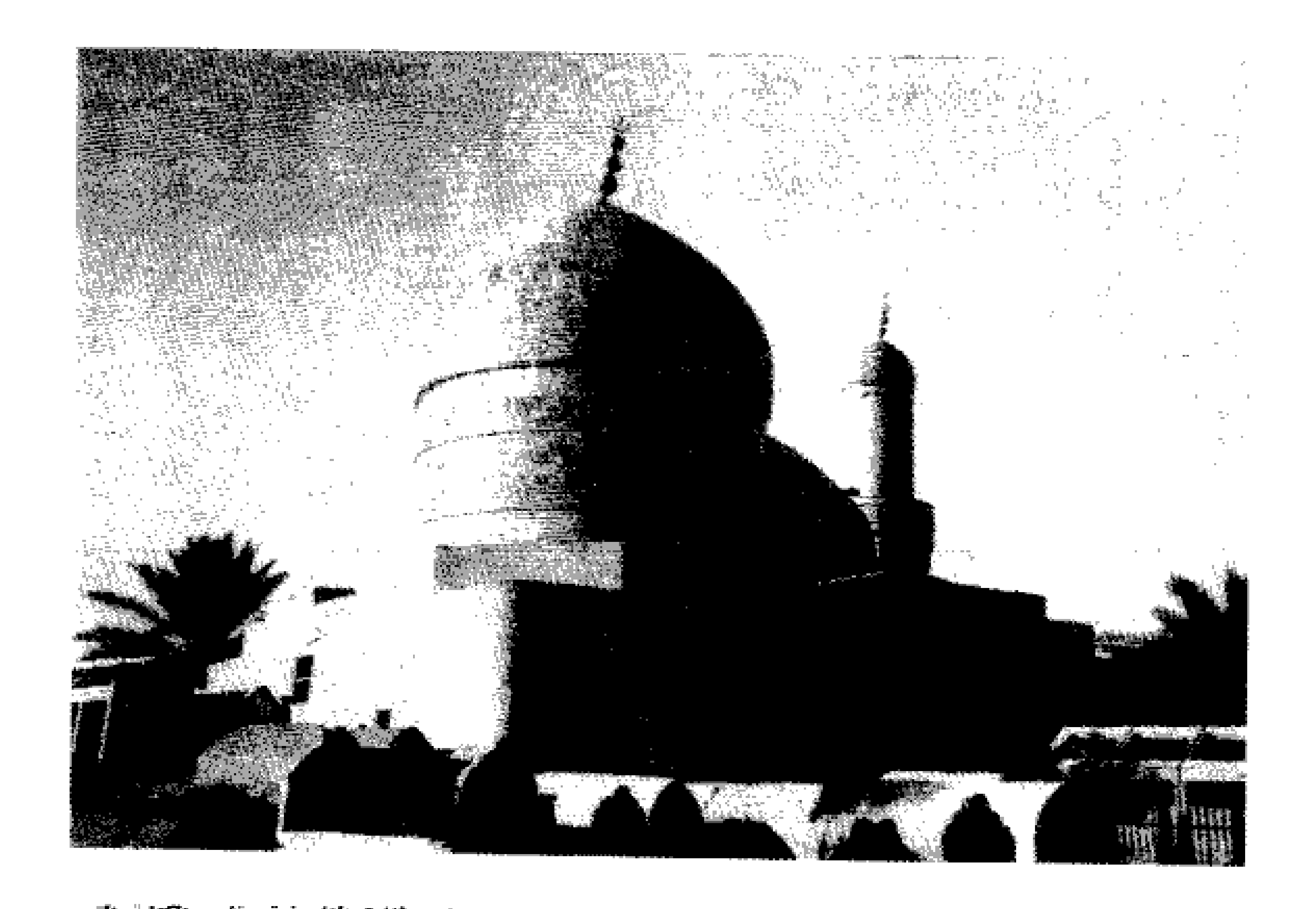
٤ - صورة باب الطلسم كما رسمها احد الرحالة الاجانب اثناء زيارته بغداد في اواخر القرن الثامن عشر .



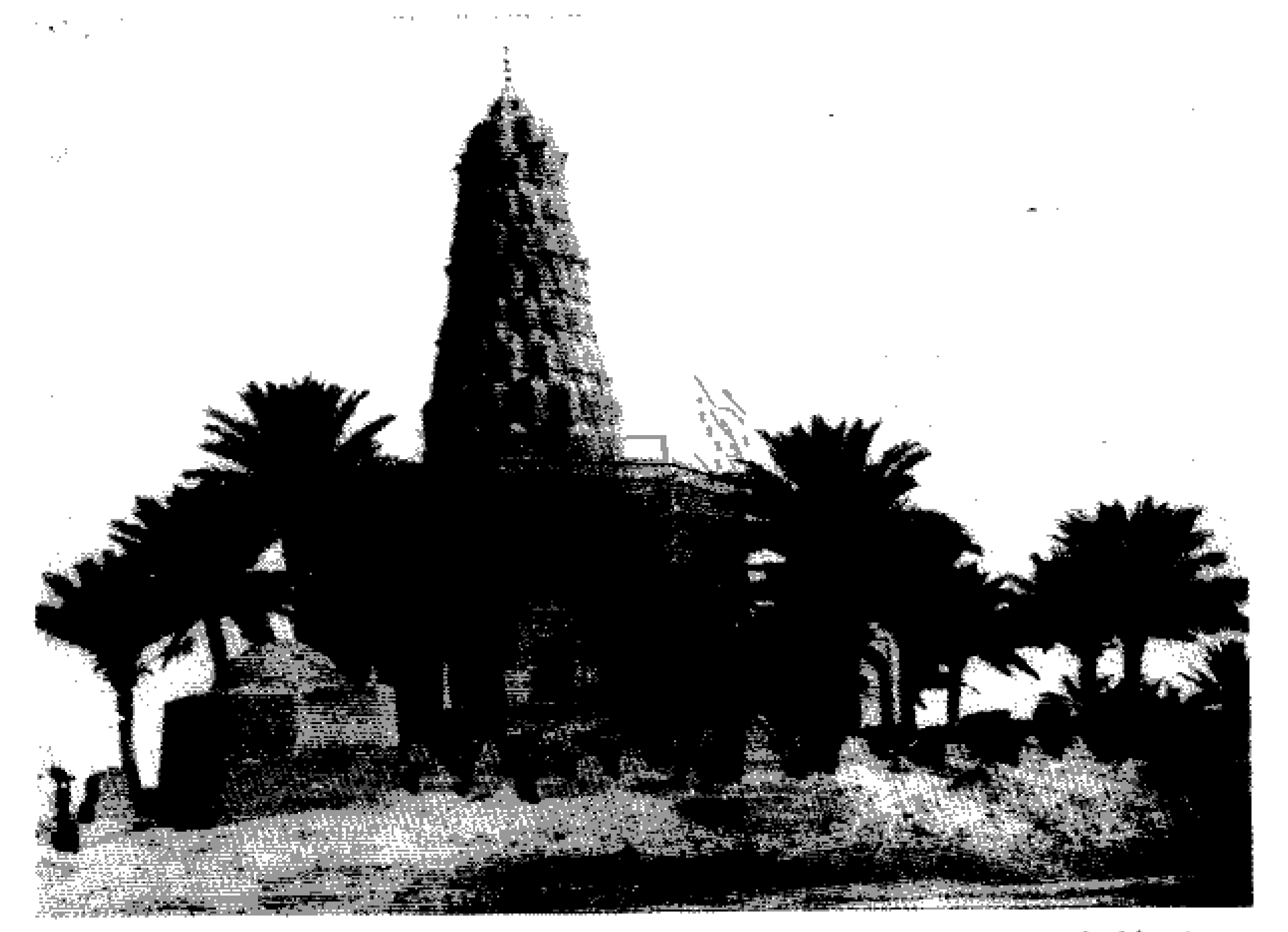
٥ ـ باب المعظم (وهو باب سوق السلطان قديما او الباب السلطاني) . وقد نقض سنة ١٩٢٥ لتوسيع الشارع . ويشاهد الى يسار الصورة جامع الازبك الذي جدد بناءه وشاد مئذنته الصغيرة الوالي العثماني داود باشا سنة ١٢٤٣ هـ (١٨١٨ م) ويقع لصق مبنى وزارة الدفاع على شارع الرشيد .



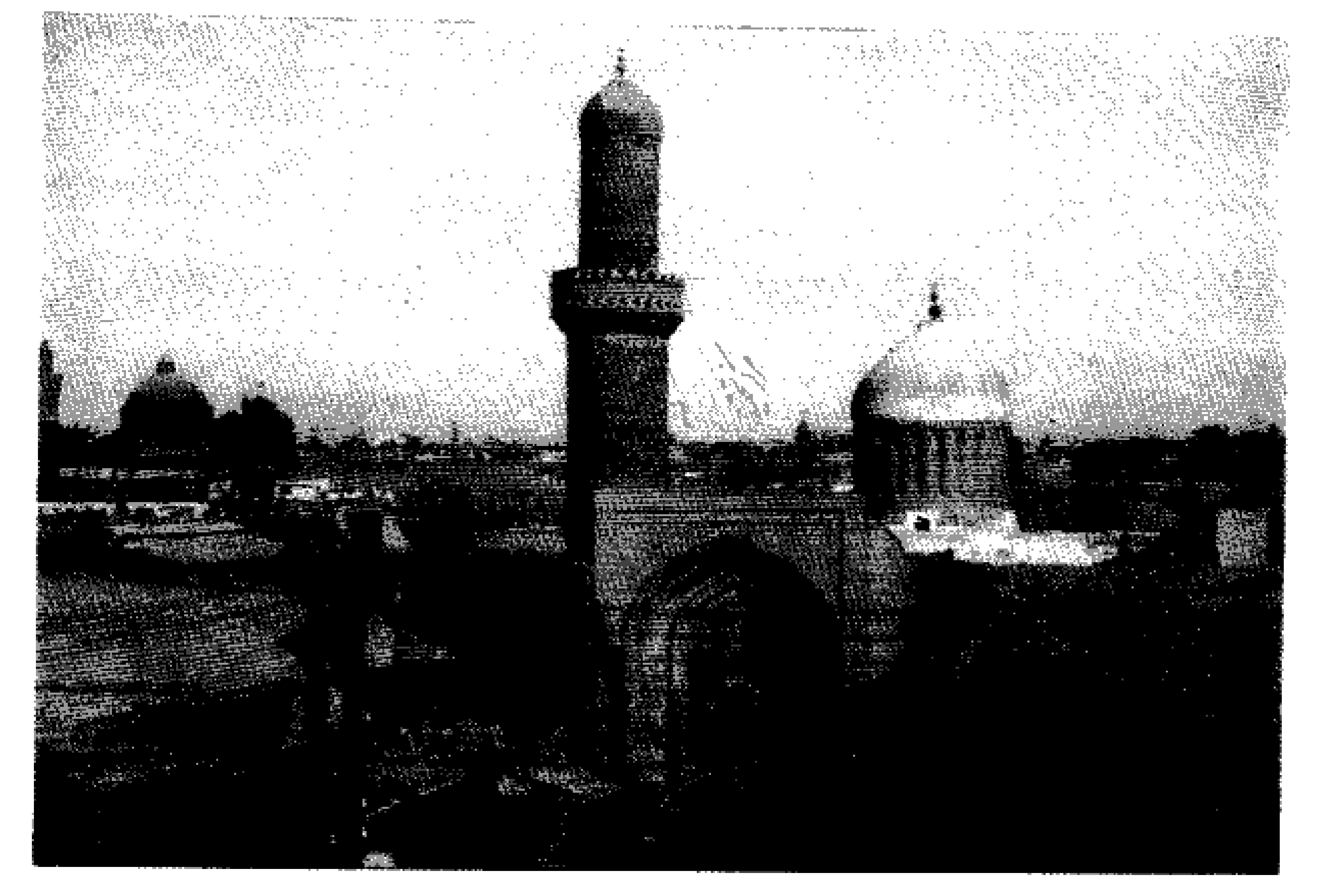
٦ ــ القصر العباسي : منظر من الداخل ويرقى زمنه الى عهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة ٥٧٥ ــ ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) واتخذ بعد صيانته متحفا للآثار الاسلامية .



٨ – تربة الشيخ معروف الكرخي في بغداد الغربية (توفي سنة ٢٠٠ هـ ٨١٥ م) وعنده المنارة التاريخية وتشير الكتابة التي تزينها الى تاريخ انشائها سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) وبجوار هذه التربة قبور بعض مريديه من الصوفية كقبر السري السقطي وكذلك قبر الشيخ جنيد وقبر منصور الحلاج ٠



١٠ – المرقد المشهور بقبر « الست زبيدة » بجوار تربة الشيخ معروف الكرخي ، وقد بنيت القبة على « الطراز السلجوقي » .



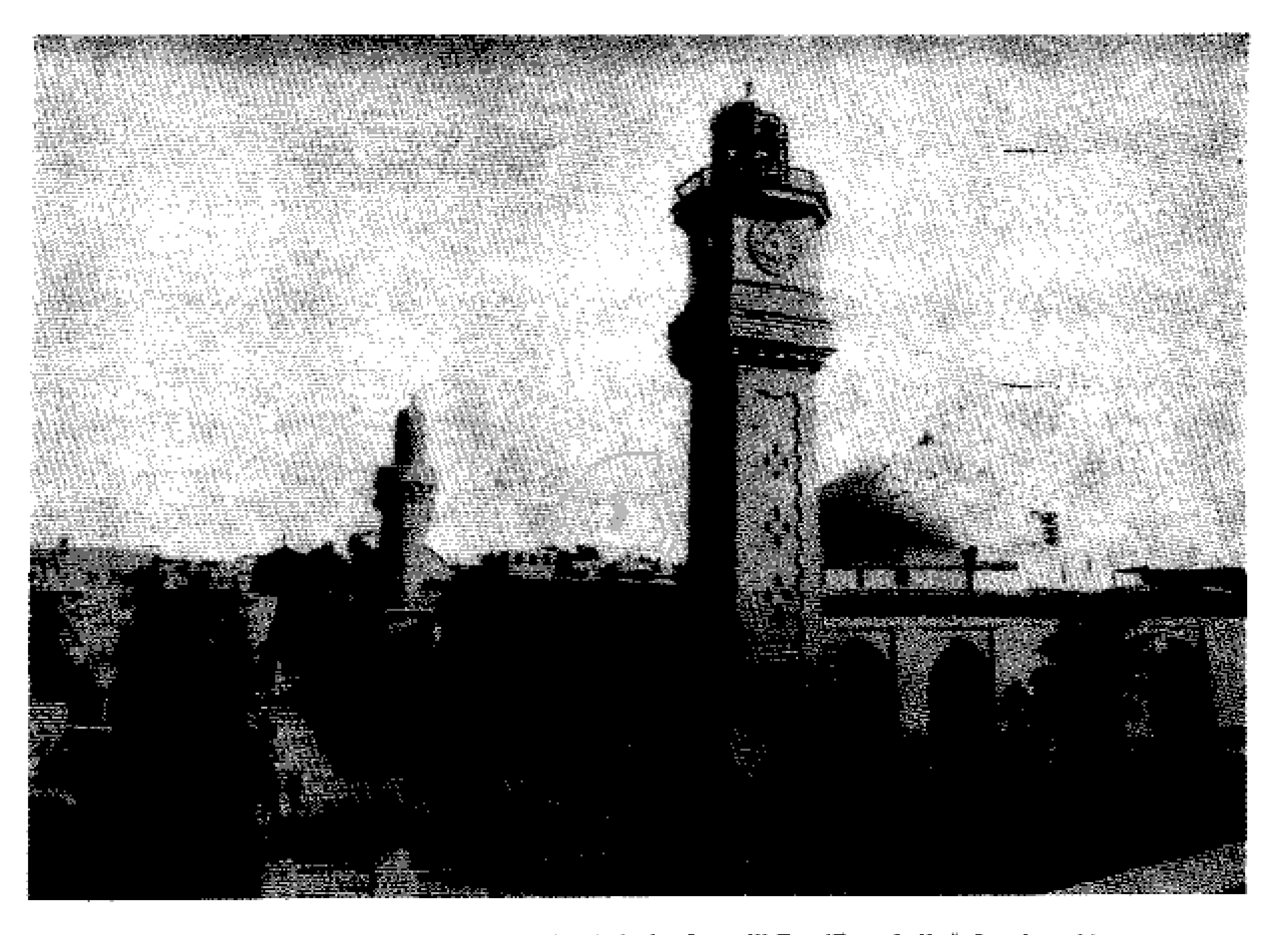
١٥ ـ المدرسة المرجانية : (اي جامع مرجان في شارع الرشيد) بناها امين الدين مرجان الاولجايتي في سنة ٧٥٨ هـ (١٣٥٦ م) . وتشاهد المدرسة قبل هدمها سنة ١٩٤٧ . ولم يبق منها الان غير مدخلها وقد بني جامع جديد في موضعها .



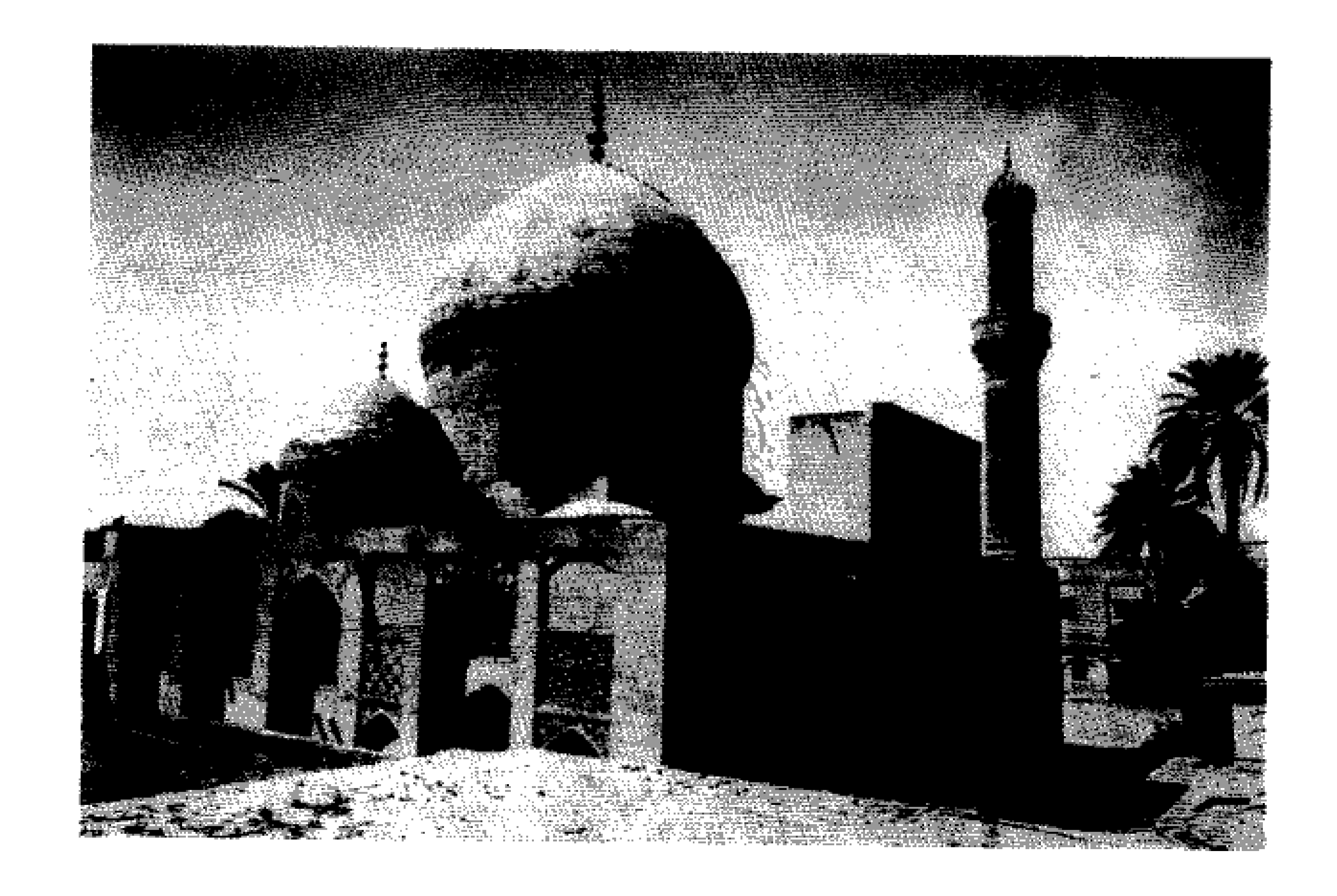
١٩ ـ المدرسة المرجانية : الزخارف الجدارية والكتابات الآجر التي كانت تزين جبهة المحراب .



١٨ ـ خان مرجان : الكتابة التاريخية فوق مدخل الخان من سوق البزازين الحالي (وهو سوق الثلاثاء قديما) . وتتضمن هذه الكتابة اسم مؤسس الخان وسنة البناء وهي ٧٦٠ هـ (١٣٥٨ م) .



١٩ ـ جامع وتربة الشيخ عبدالقادر الكيلاني : وقد دفن فيها سنة ٥٦١ هـ (١١٦٥ م) وهي سنة وفاته .



٣٢ ـ جامع الحيدرخانة : بناه الوالي العثماني داود باشا سنة ١٢٤٢ هـ (١٨١٨ م) وهو آخر المماليك الذين حكموا بغداد .

فهرست المحتويات

تمهيد ٧

مقدمة المؤلف ١١

الفصل الأول: الإبحار من الهند ١٩

الفصل الثاني: استراحة في البصرة ٣٣

الفصل الثالث: في شط الدجيلة ٥٩

الفصل الرابع: في بغداد ٨٣

الفصل الخامس: في الطريق إلى كركوك والموصل ٩٩

الفصل السادس: في مدينة الحدباء ١١٩